A 18

الشريف الرضي

عصره - تاريخ حياته - شعره

بقلم

محمد سيد كيلاني

الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧

حق الطبع محفوظ

مطبعة الاهرام بعابدين بمصر

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ العَرَب
أ. علاء الدين شوقى
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

الشريف الرضي

عصره - تاريخ حياته - شعره

بقلم

محمد سيد الكيلاني

الطبعة الاولى سنة ١٩٣٧

حق الطبع محفوظ

ما كان لصاحب رأى أن يكون جبـاناً

محمد سيد الكيلانى

مقـــــدمة

هذا كتاب « الشريف الرضى » نتقدم به الى محبي الأطلاع في تواضع وخفض جناح . ولا يخفى على أحد أن الشريف الرضى شاعر قوى جـدا له فى عالم الأدب العربي مكانة ساميـة ومنزلة رفيعة . وحسب القارىء أن يتصفح ديوانه ليرى تلك الشاعرية المتدفقة التى تغرينا بدراسة هذا الشعر دراسة دقيقـة وتجعلنـا مولعين بالبحث عن صاحبه وعن العصر الذى عاش فيـه

وقد رأيت أن أقسم الحديث عن هذا الرجـل العظيم إلى ثلاثة فصول . ففى الفصل الأول درست العصر الذي عاش فيه الشريف دراسة أعتقد انها وافية . وصفت الحالة السياسيـة ثم

الاجتماعية وتحدثت عن الدين والحالة الفكرية ثم انتقلت إلى الكلام عن الشعر والشعراء والكتابة وأشهر الكتاب .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن أسرة الشريف ونسبه ثم أتيت بفذلكة بسيطة عن مشكلة الخلافة التى كانت مطمح آمال الرجل . ثم تكلمت عن مولده وانتقلت إلى غير ذلك مما يراه القارىء .

وأفردت الفصل الثالث لدراسة أدب الشريف . وأتيت بعد هذه الفصول بجملة قصائد مما نظمه صاحبى فى المديح والرثاء والفخر . وبهذا ينتهى الكتاب

. . .

وسيرى القارىء لهذه الفصول بحوثا قد يغضب منها وقد لا يغضب . وعلى كل فأنى لم أجبل قط على مراعاة العواطف إنما جبلت على قول الحقيقة أسعى فى طلبها حتى إذا ما ظفرت بها قدمتها إلى من يعشقونها دون أن أبتغى من وراء ذلك جزاء أو شكورا . والحقيقة هنا مرة لا ترحم أحداً من هؤلاء الذين

يخضعون عقولهم لمعتقدات أراها أثرا من اثار الماضى المظلم لا أكثر ولا أقل.

القاهرة فى ٢٥ مارس سنة ١٩٣٧ م

محمد سير الكيلانى

الفصل الاول

الشريف الرضى

عصره او القرن الرابع الهجرى

— تمهيد —

للقرن الرابع الهجرى صورتان متباينتان تناقض إحداهما الأخرى فأولاهما قبيحة مشوهة تعافها النفس وينقبض منها الصدر لا يسعنا إلا أن ننظر اليها بأفئدة مملوءة بالأسى ، مفعمة بالحزن لما أصاب الشعوب الشرقية من نكبات جسام ومحن كان بينها من قتال وخصام وفرقة وانقسام . نبحث فى التاريخ السياسي لهذا القرن فلا نجد غير فتن واضطرابات وقلاقل وثورات وعروش تقوم ثم تهوى ودول تنشأ ولا تلبث أن تزول ...

فاذا ما تركنا هذه الصورة المحزنة وانتقلنا الى الصورة الأخرى ألفيناها جذابة شائقة تأخذ بمجامع القلوب . وجدنا تقدما فكريا مطردا وحركة علمية واسعة المدى . فهذا العصر كما يرى القارىء قد جمع بين الرقى والانحطاط ، بين التقدم والتأخر .

الحالة السياسية

(١) الخلافة العباسية

انحلت الامبراطورية العربيـة انحلالا تاما ولم يبق للخليفـة العباسى إلا ذكر اسمـه فى الخطبة ومع ذلك فقد كان مهددا بالخلع أو القتل أو الاثنين معا . وقامت على انقاض هذه الامبراطورية إمارات بعضها عربى وبعضها فارسى . ففى شمال افريقية قامت الدولة الأغلبية ثم الأدريسية ثم الفاطمية واستقل آل طولون ثم آل الأخشيـد بمصر ثم بسطوا سلطانهم على بلاد العرب وبلاد الشام ثم حل محلهم الفاطميون . وحكم آل حمـدان الموصل وحلب وديار بكر والجزء الشمالي من بلاد الشام . وفى طبرستان قامت الدولة العلوية وفى هراة قامت الدولة الصفارية وفى خراسان قامت الدولة السامانية وتغلب بنو بويه فى منتصف هذا القرن على فارس والعراق واتخـذوا بغداد مقرا لملـكهم .

***

ولقد كان هؤلاء الملوك فى نزاع مستمر وحروب دائمة فضعف أمرهم وانحط شأنهم وسقطت هيبتهم وتلاشت قوتهم . وكانت النتيجـة الأولى

لهـذا الضعف طمع الروم فى أملاك المسلمين وشنهم الغارة تلو الغـارة على كثير من الاقاليم . فـكان القرن الرابع قرن حروب بين الروم والمسلمين ظفر الروم فى أكثرها بينما جيوش المسلمين تقتتل ويغير احدها على الآخر وكانت النتيجـة الثانيـة لهذا الضعف طمع الاوربيين فى الشرق وخيراته فحملوا عليه حملاتهم الهائلة وانتصروا على الشرقيين بفضل اتحادهم وصدق عزيمتهم وانهزم هؤلاء لما كانوا عليه من فرقة وانقسام . ولولا بنو حمدان فى القرن الرابع وبنو ايوب فى القرن السادس لتمـكن الاوربيون من اكتساح الشرق الادنى بأكمله والقضاء على الاسلام قضاء مبرما .

ولد الشريف الرضى سنة ٣٦١ هـ وتوفى سنـة ٤٠٦ هـ فكأنه عاش خمسة وأربعين عاما أدرك فى خلالها ثلاثة خلفاء هم : المطيع لله والطائع لله والقادر بالله . وفى أيام هـذا الخليفـة توفى شاعرنا . ولـكي ندرك الحالة السياسية فى ذلك العصر يجب علينا أن نستعرض الحوادث التى وقعت فى عهد هؤلاء الخلفاء متوخين فى ذلك الايجاز .

أول ما يلفت نظر الباحث فى تاريخ هذا العصر هو كثرة الفتن التى كانت تقع بين الاتراك والديلم فى بغداد وما كان يترتب عليها من سفك الدماء وتخريب الاحياء الآهلة بالسكان وتعريض الناس للهلاك . فما كان يمضى عام حتى تقوم المعارك الحامية بين هـذين العنصرين وتستمر أياما

فتسود الفوضي ويعم الاضطراب ويختل الامن وتنتشر اللصوصية فتعرض المحال التجارية للنهب والسلب والدور للحرق والتدمير .

فى عصر المطيع لله هجم الروم على بلاد الشام ودخلوا طرابلس بغير قتال فأحرقوها ثم ساروا مستولين على القلاع والحصون التى فى طريقهم حتى دخلوا حمص وكان أهلها قد انتقلوا منها وأخلوها فأحرقها الروم كما أحرقوا طرابلس من قبل . ثم قصدوا بلدان الساحل فأوسعوها نهبا وتخريبا . ودخلوا المساجد بخيلهم ونقلوا الى بلادهم ثمانية عشرة منبرا وبقى الروم فى بلاد الشام أكثر من شهرين يخربون المدن ويدمرون القرى ، يغنمون الغنائم ويأسرون الآلاف الفتيان والفتيات ويرسلونهم إلى بلادهم ويحولونهم من الديانة الاسلامية الى الديانة المسيحية فعظمت مكانة الروم في أعين المسلمين وارتفعت منزلة امبراطورهم فقصده فريق كبير من العرب الضاربين بنواحى الشام وتركوا الدين الاسلامى واستبدلوا به الدين المسيحى . فازدادت شوكة الروم فأرسلوا حملة الى نصيبين استولت عليها بسهولة ودخلتها دون مقاومة وأعملت السيف فى رقاب أهلها وأشعلت النيران فى أحيائها ونهبت مافيها من أموال ونفائس . حدث كل ذلك والمسلمون ساهون لاهون ينظرون الي مايقع عليهم نظر المغشى عليه من الموت . الخليفة ضعيف لاحول له ولاقوة وعز الدولة بختيار أحدمن جلسوا

على عرش آل بويه يقضى نهاره في الصيد وليله بين الكاس والطاس حيث الجوارى الحسان والفاتن من الغلمان .

* * *

تحرك العامة في بغداد وأشفقوا على أنفسهم وعلى بلادهم من غارات الروم المتواليـة فاجتمع منهم خلق كثير وساروا الى دار الخلافة وأرادوا الهجوم علي الخليفة المطيع لله فحال الحراس بينهم وبين مايشتهون وأغلقت الابواب فى وجوههم فأسمع المتجمهرون الخليفة مايقبح ذكره على حد تعبير ابن الاثير .

ثم خرج نفر من أعيان بغداد ووجوهها قاصدين عز الدولة بختيار وهو المالك الفعلي لبلاد العراق . فوجدوه فى احدى نواحى الكوفة يقضي وقته فى الصيد فاستصرخوه واستنجدوه ضد الروم الذين كانوا يهددون المسلمين باكتساح بلادهم . فوعدهم بختيار بصد الروم وارجاعهم الى بلادهم وأخذ يجمع المال اللازم للحرب . وبعث الى المطيع لله يطلب منه مالا لمواصلة الاستعدادات الحربية وتموين الجيوش بالاسلحة والذخائر وغيرها من معدات القتال . فأجاب المطيع بقوله « ان نفقات الجيوش والدفاع عن امر المسلمين تلزمنى اذا كانت الدنيا فى يدي أما اذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شيء من ذلك وانما يلزم من البلاد فى يده . وليس لى الا الخطبة

فأن شئتم ان اعتزل « فعلت . » ولكن الخليفة المسكين — خليفة النبي — أضطر تحت التهديد والوعيد الي دفع اربعمائة الف درهم جمعها بعد أن باع ملابسه وأثاث بيته — الي بختيار الذى أخذها وانفقها على ملذاته الخاصة وأهمل أمر الحرب . . . . ! ! !

* * *

ما كاد الستار يسدل علي هذا الفصل المحزن حتى خلع المطيع لله لمرض عضال حل به وتولي بعده ابنه الطائع لله وفى عهده وقع من الحروب والفتن مالا يقل عما حدث فى أيام سلفه . وكان من عادة ملوك ذلك العصر أن الواحد منهم اذا أعوزه المال عمد الى وزيره وقبض عليه وألقى به فى السجن أو قتله ثم صادر أملاكه واستصفي أمواله ووضع يده علي كل ما يملكه هذا الوزير من ذهب وفضة ومتاع وعقار . واتفق ان كان الجالس على عرش البويهيين في بغداد أيام الطائع لله هو بهاء الدولة . ولقد احتاج هذا الى كثير من المال لتسديد مرتبات جنوده الذين أوشكوا أن يثوروا ضده فولى وجهه شطر وزيره الامين وخادمه المخلص سابور فقبض عليه وقتله ثم أخذ ما كان يمتلكه هذا من أموال لم تجد بهاء الدولة شيئا لقلتها وعدم وفائها بالمطلوب . ماذا يعمل بهاء الدولة وجنده قد نضب معين صبرهم وأصبحوا فى حالة تذمر وسخط ينذر بقيام ثورة قد تذهب بعرشه ؟ ؟ ؟ لقد حار

الرجل في أمره ولـكن أحد المقربين اليـه حسن له القبض على خليفة النبي والاستيلاء على مافى قصر الخـلافة من أموال ونفائس وهون عليـه الامر فاقتنع بهاء الدولة بهذه الفـكرة وشرع في تنفيذها . فأرسل الى الطائع يسأله الاذن فى الحضور في خدمته ليجدد العهد به فأذن له الخليفة فى ذلك وجلس له كما جرت العـادة . فأقبل بهاء الدولة في جمع كثير من الديلم فلما دخل قبل الارض وجلس على كرسى فـدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره و خليفة النبي يستغيث و يستنجد ولا مغيث ولا منجد . وعلى أثر هذا نهب الديلم القصر وأخذوا مابه من مال ومتاع واعتدوا على من فيه من نساء وأطفال أشنع اعتداء . وكان الشريف الرضى اذ ذاك حاضرا فى مجلس الطائع ورأى بعينى رأسـه ماوقع ففر هاربا طالبا النجـاة بنفسه فتمكن من الفرار دون ان يقبض عليه أحد . وله فى ذلك قصيدة طويلة جاء فيها

أعجب بمسكة نفسى بعدمارميت ... من النوائب بالأبكار والعون
ومن نجاتى يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخل من حزم ينجينى
مرقت فيها مروق النجم منكدرا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنت اول طـلاع ثنيتهـا ... ومن ورائى شر غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... الى ادنيه فى النجوى ويدنينى

أمسيت أرحم من قد كنت أغبطة لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

قبض على الديلم خليفة النبي وبذلك أسدل الستار على الفصل الثاني من تلك الرواية المحزنة التي شهدها الشريف .

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يولي بهاء الدولة وجهه شطر أحد الأمراء العباسيين لأقامته خليفة فلم ير من يصلح لذلك غير القادر بالله الذي كان غائبا عن بغداد ومقيما بناحية البطيحة فبعث اليه يشير عليه بالحضور الى بغداد فحضر وكان بهاء الدولة أول من بايعه بالخلافة الا أن كثيرا من الجند قاموا بثورة ضد القادر بالله ولكن بهاء الدولة تمكن من سكين خواطر الثائرين وارضائهم فلم يسعهم الا الاعتراف بالأمر الواقع .

كان الشريف الرضي يؤمل أن ينصب خليفة على المسلمين بعد انقبض على الطائع لله ولكن آماله لم تتحقق لأسباب سنبينها في غير هذا المكان فحزن حزنا شديدا ومات وهو في ريعان الشباب فكانت وفاته خسارة عظيمة أصيب بها العلويون .

(ب) الدولة البويهية

ذكرنا آنفا ماصار اليه أمر الامبراطورية العربية من انحلال وانقسام ، وذكرنا كذلك الدول التى قامت على انقاض الامبراطورية العظيمة ومن بينها لدولة البويهية التى بسطت سلطانها على فارس والعراق واتخذت بغداد قاعدة لها . ومر بنا من ملوكها عز الدولة . بختيار ثم بهاء الدولة . ونريد الآن أن نتكلم عن أصل هذه الأسرة ومنشئها وكيفية وصولها الى هذه الدرجة الرفيعة لنوفي البحث حقه .

على أننا نحب أن نتعرض للسياسة العامة التى جرى عليها الخلفاء العباسيون منذ القرن الثالث الهجرى تلك السياسة الخرقاء المبنية على شيء من الجهل وقصر النظر والتى مزقت وحدة المسلمين شر ممزق وهوت بهم الى أسفل دركات الانحطاط وانتهت بهم الي الذل وسوء المصير .

نظام الاقطاع هو السياسة التى سار عليها خلفاء النبي الذين لاهم لهم الا الانغماس فى الشهوات والحصول على أكبر قسط من اللذات نظام الاقطاع هو السياسة التى اتبعها خلفاء النبي الذين كانوا يقضون أوقاتهم فى معاقرة بنت الحان ومغازلة الحسان وجماع الفتيان . يقطع الخليفة أحد قواده إقليما من الأقاليم ويترك له الحرية التامة فى إدارة شؤون هذا الأقليم مقابل جزية يبعث بها إلى بغداد . على أن هؤلاء الحكام كانوا يمتنعون عن

إرسال هذه الجزية ويقطعون كل علاقة تربطهم بمقر الخلافة . هذه نبذة موجزة عن السياسة التى كانت متبعة فى ذلك الحين أتينا بها تمهيدا للكلام عن آل بويه الذين تسنموا الملك عن طريق الاقطاع .

يلاحظ المطالع لتاريخ هذا العصر أن كل ملك من الملوك الذين ظهروا اذ ذاك . عدا القليل منهم — كان من أسرة خاملة وأصل وضيع . وأنما وصل إلى ما وصل اليه بفضل ذكائه ودهائه وحسن سياسته . وأمثال ذلك ابن طولون وكافور الاخشيد وعدا هؤلاء كثيرون . وكان بعض هؤلاء الملوك يجتهد فى اقناع الشعب أن من يحكمهم ليس من عامة الناس وانما هو من بيت مجد ومن نسل ملوك استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب.

عمموا بالشمس هاماتهم وبنو أبياتهم بالشهب

هذا هو لسان حال بعض الملوك الذين عاشوا فى ذلك العصر والذين وجدوا من المؤرخين من يخلق لهم الانساب والأحساب نظير عرض زائل يتناوله فيكذب على الناس وعلى التاريخ . وأمثلة ذلك كثيرة يتبينها الباحث عند دراسته لملوك الطوائف بالاندلس ولحكام شمال افريقية .

ولم يعدم البويهيون من يرجع نسبهم الى بهرام جور من ملوك العجم . قال بذلك ابو اسحاق الصابىء . وجاراه فى ذلك بعض المؤرخين وخالفه البعض الاخر .

ومهما يكن من امر هؤلاء البويهيين فانهم عجم وليسوا ديلما إنما سموا بذلك لانهم سكنوا بلاد الديلم . ورأس هذه الاسرة هو ابو شجاع بويه الذى كان يشتغل بصيد السمك . دخل ابناؤه الثلاثة «على والحسن وأحمد» في خدمة مرداويج أحد قواد الفرس الذين استقلوا بناحية طبرستان وجرجان . وكان بنو بويه من أجناده الامناء وأعوانه المخلصين . فعظمت منزلة اكبرهم وهو علي عنده فولاه الكرخ ثم امتلك هذا قطعة من بلاد فارس ولم يقتنع بذلك بل كتب الى الخليفة الراضى يسأله ان يمنحه فارس كلها مقابل جزية سنوية يرسلها اليه على أن يبعث إليه الخليفة بخلعة السلطنة والمنشور . فأجابه الراضي إلى طلبه جريا وراء نظام الاقطاع الذى تكلمنا عنه .

لم يبق للخلافة العباسي بعد ذلك إلا بغداد والكلمة العليا فيها للعنصر التركي . على ان هذه لم تسلم من أيدى البويهيين فقد طمع فيه علي السالف الذكر ولما رأى ماعليه الخلافة من ضعف أرسل أخاه أحمد بجيش دخلها من غير قتال وكان الخليفة اذ ذاك هو المستكفى بالله الذى رحب باحمد واحتفل به وخلع عليه الخلع تودداً إليه وقدم له الهدايا تقربا منه ولقبه معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب كناهم وألقابهم علي النقود . وكان المستكفى ضعيفا جدا أذله معز الدولة

ونهب قصره واعتقله فى داره التى بقي فيها حتى توفى سنة ٣٣٨ هـ .

ولم يمض قليل حتى توفي معز لدولة فخلفه ابنه عز الدولة بختيار وكان هذا ضعيفا مهملا لما فيه خير الرعية سيء السيرة منغمسا فى الشهوات فطمع فيه عضد الدولة ابن عماه الدولة عم بختيار فسار بجيش كبير قاصدا العراق فالتقي بجيوش بختيار التى هزمت شر هزيمة وولت الادبار وعلي أثر هذا استولى عضد الدولة على بلاد العراق بأكملها واتخذ بغداد مقرا له .

ولما توفى عضد الدولة خلفه ابنه صمصام الدولة علي العراق وابنه شرف الدولة على فارس . ودارت الايام دورتها فوقعت خصومة بين الاخ واخيه ترتب عليها مسير شرف الدولة بجيوشه إلى العراق قصد محاربة اخيه صمصام الدولة . وكانت نتيجة هذه الحرب انتصار شرف الدولة الذى دخل بغداد وقبض علي أخيه وسجنه . ولم يلبث شرف الدولة ان مات فخلفه ابنه بهاء الدولة الذى مر بنا آنفا .

فى وسط هذا الجو المضطرب المملوء بالمخاوف ، والمحفوف بالمخاطر ولد الشريف الرضي وفيه عاش ، وفيه مات .

الحـالة الاجتماعيـة

ليس من العسير علينا أن نفهم الحالة الاجتماعية فى عصر الشريف الرضى بعد أن تكلمنا عن الحـالة السياسية بوضـوح وجلاء .

فانقسـام الامبراطورية العربية الى دويلات صغـيرة وقيـام الحروب المستمرة بين هذه الدويلات يدلنا على أن الأمة الاسـلامية قد تمزقت وحدتها وتفرقت كلمتها وأصبحت ولا علاقة بينها ولا رابطة ولاصـلة . ويدلنا كذلك على أن هذه الأمة قد قضت ردحا من الزمن متخاصمـة متقاتلة حاقدا بعضها عـلى بعض . فبينما كان الروم يهـاجمون بلاد الشام ويذيقون أهلها جميـع أنواع العـذاب ، ينهبون ويسلبون ويقتـلون ويأسرون ويدخلون المساجد بخيلهم كان المسلمون يتقاتلون ويحمل بعضهم على بعض حملات متوالية . ومن الغريب أنهم لم يحاولوا لم شعثهم وتوحيد كلمتهم بأزاء الخطر الأوربى . بل بقوا على مـاهم عليه من فرقة وانقسـام

حتى دهمتهم أوربة المتحدة فانتصرت عليهم انتصارا مبينا فى الحرب الصليبية الاولي .

ولقد كان عجيبا لو لم يحدث هذا الانقسام الذى هو أمر طبيعى فى امبراطورية مترامية الاطراف جمعت شعوبا وقبائل تختلف فى اللغة والعادات والأخلاق والأمزجة والطباع والتقاليد حتى فى الدين ففيها السنى والشيعى والحنبلى والرافضي والخارجى . وكثيرا ماقامت الفتن ونشبت المعارك الدموية بين هذه الفرق فيعم الاضطراب وتسود الفوضى وتنتشر اللصوصية وتهدم دور وتدمر أحياء . فهذا الانقسام وهذا التنافر هما اللذان سهلا مهمة هؤلاء الذين اقتسموا تلك الامبراطورية العظيمة . ومن المدهش أن الواحد من هؤلاء المتغلبين كان يقوم بتحقيق أمنيته فيجند الانصار والاعوان ثم يخرج عليه احد أتباعه فينقسم هؤلاء الانصار الى قسمين قسم له وقسم عليه . وهذا شيء يدل علي أن الناس قد فقدوا فضيلة الثبات على المبدأ كما أنهم فقدوا الأمانة والاخلاص والوفاء .

* * *

ولاريب في أن تعدد الزوجات كان من أهم الأسباب فى تفكيك عري المودة بين أفراد الاسرة الواحدة . فالرجل يتزوج امرأة فارسية ثم يتزوج أخرى رومية وينجب من كلتيهما أولادا ينشأ كل منهم متعصبا لأمه وعنصره

حتي لا يكاد الاخ يتفق مع أخيه فى شيء . وأكبر مثال لذلك النزاع الذى كان يقع بين أفراد آل بويه . فعضد الدولة الذى خلف أباه عماد الدولة في حكم إيران لم يكتف بملكه بل عمد الى محاربة ابن عمه عز الدولة بختيار واستولى على املاكه ودخل بغداد وقبض على أولاد بختيار وألقى بهم فى السجن . ولما مات عضد الدولة خلفه ابنه صمصام الدولة على العراق وابنه شرف الدولة على ايران فطمع شرف الدولة فى ملك أخيه فسار بجيوشه قاصدا العراق فاستولى عليها ثم دخل بغداد وقبض علي أخيه صمصام الدولة وزج به فى السجن وأمر بتعذيبه ثم ارسل اليه من سمل عينيه . هذا مثل من أمثلة تنافر القوم وتباغضهم . قلوب تغلي من الحقد غلى المراجل .

* * *

علمنا أن الامبراطورية العربية انقسمت الى دويلات صغيرة على رأس كل منها ملك لا تفتأ الحرب قائمة بينه وبين أحد من يجاوره من الملوك حتي يتغلب أحدهما علي الآخر . ولقد كان من الطبيعى أن يحتاج هذا الملك الى كثير من المال للقيام بنفقات تلك الحروب التى لا انقطاع لها فكان يعمد الى إثقال كاهل رعيته بالضرائب الفادحة وإلى القبض على الوزراء والأغنياء ومصادرة أملاكهم والاستيلاء علي أموالهم . فانتشر الظلم وعم

الخوف والهلع وأضحت الحياة عبئا ثقيلا لا يحتمل . وما كان المعرى مسرفا ولا مبالغا فى قوله

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معا
ونحن بعدهم فى الأرض قطان
إن العراق وإن الشام مذ زمن
صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة
فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحتمل خمص الناس كلهم
ان بات يشرب خمرا وهو مبطان
تشابه النجر فالرومى منطقه
كمنطق العرب والطائى مرطان
أما كلاب فأغنى من ثعالبهم
كأن أرماحهم فى الحرب أشطان
متى يقوم امام يستقيد لنا
فتعرف العدل أجيال وغيطان

ولا حين يقول:

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

• • •

والنتيجة الطبيعية لهذه الحروب الكثيرة وتلك القلاقل المستمرة هي خراب البلاد وخلوها من الايدى العاملة ومن مظاهر الحضارة ودواعي العمران. لقد كسدت التجارة واقفلت دور الصناعة وأقفرت الحقول من الزراعة وانصرفت الشعوب الاسلامية الى القتال والنزال فى الشرق وفى الغرب وفى كل بقعة اسلامية أخرى. فلا عجب اذا انقطعت موارد الرزق وأصبحت الرعية فى حالة بؤس شديد وفقر مدقع. وترتب على هذا كثرة وقوع المجاعات حتى أكل الناس لحوم الخيل والبغال والحمير بل كانوا ينصبون الاشراك فى الازقة والطرقات لصيد الاطفال وذبحهم ليتخذوا من لحومهم طعاما شهيا. ولقد بلغ بهم الجوع مبلغا عظيما حتى أكلوا الموتى.

والنتيجة المباشرة لتعاطى هذه الاغذية الغير صحية هى انتشار الاوبئة والطواعين التى كانت تفتك بالناس فتكا ذريعا.

• • •

على ان هناك فترات قصيرة كانت تمر على هذه الشعوب وهى فى حالة سلم فكانت تميل الى الترف والنعيم. تنغمس فى الشهوات وتسرف فى

ارتكاب الموبقات لايترك المرء لحظة تمر عليه دون أن يأخذ بحظ عظيم من اللذات . وكان الملوك أئمة لشعوبهم وقادة لهم فى كل انواع الفساد .

زعموا أن عز الدولة بختيار كان يملك غلاما على درجة عظيمة من الجمال وكان يميل اليه ميلا شديدا . وحدث أن وقع هذا الغلام أسيرا فى يد عضد الدولة فحزن عليه بختيار وامتنع عن لذاته ونسى ماحل به من نكبات ومصائب وهان عليه ضياع ملكه بجانب ضياع هذا الغلام . ولقد بلغ من تأثره انه صرح على رؤوس الاشهاد بأن فجيعته بذهاب هذا الغلام أعظم من فجيعته بذهاب ملكه . ثم سمع انه في جملة الاسرى فأرسل الى عضد الدولة يبذل له ماأحب من المال فى رده اليه فأعاده هذا دون تردد .

وبختيار هذا كان يقول الشعر ومن نظمه قوله

اشرب على قطر السماء القـــاطر
فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدي المـزاج بكأســها
درا نثـيرا بين نظم جـواهر
من كف أغيـد يستبيك اذا مشى
بدلال معشوق و نخـوة شـــاطر
والمـاء مابين الغصـــون مصـفق

مثل القيان رقصن حول الزامر

هذه هي أخلاق ملوك المسلمين فى ذلك العصر . واذا علمنا أن الناس على دين ملوكهم أدركنا ما أصاب القوم فى اخلاقهم من انحطاط عظيم

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم

فأقم عليهم مأتما وعويلا

انتشرت الخلاعة والمجون وكثر التغزل بالغلمان وتسابق القوم فى انتهاك الحرمات وشربوا الخمر نهارا جهارا لادين يردعهم ولا ضمائر تزجرهم ولا احساس يمنعهم ولا قانون يؤاخذهم .

واذا كنا نبحث للحقيقة وللحقيقة وحدها فاننى أصرح فى غير خوف ولا وجل بميلى الى القاء تبعة هذه الفوضى الاخلاقية على عاتق الشريعة الاسلامية ذلك لانها أباحت الزنا . فالرجل يستطيع ان ينكح أى أمرأة تصادفه متى قالت له « وهبت لك نفسي » . ان قول هذه الجملة كفيل بجعل هذا الزنا الذى لاشك فيه حلالا فى نظر الاسلام . ومن الناس لا يعرف هؤلاء المحامين الشرعيين — ذهبت النيران بعمائمهم — الذين يجعلون فى مكاتبهم أمكنة خاصة يختلون فيها مع الجميلات من النساء اللائى يذهبن لشؤون قضائية . ولا حرج على الازهريين وأشباه الازهريين من غشيان بيوت الدعارة السرية والعلنية مادامت عبارة « وهبت لك نفسي » باقية وستبقى .

قلنا ان الاخلاق قد انحطت كثيرا فى عصر الشريف الرضى . و ان شاء القارىء ان يقف على ما وصلت اليه من التدهور والفساد فما عليه الا ان يطلع على الجزء الثالث من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي . فلقد حوى هذا الجزء من بذىء القول مالا يصدر فى العصر الحاضر — عصر الفساد — كما يقولون — من اى كائن مهما تأنق فى الوقاحة وتعمق فى السفاهة . وما لا تستطيع اعظم المجلات الهزلية فى الشرق او في الغرب نشر بيت واحد من الابيات الكثيرة التى وردت في الجزء المذكور وفى غيره من الكتب والدواوين . ومثال ذلك قول بن الحجاج وهو من الشعراء المجيدين .

إياك والعفة أياكا إياك أن تفسد معناكا
أنت بخير ياأبا جعفر مادمت صلب الابر نياكا
فنك ولو أمك واصفع ولو أباك إن لامك فى ذاكا

وقول ابن سكرة الهاشمى وهو من ولد على بن المهدى بن المنصور الخليفة العباسي

عشقت لاحين قينة عطفت قلبي بالحسن كل منعطف
ورمت نيكالها فكيف به لولا سفاهي والبدع من حرفى
قلت ارفقى بالشريف فابتسمت عن لؤلؤ ما اعتزى الى صدف
عجبا وابدت كالقعب عض له إبرى على بيضه من الأسف

وهذه الأشعار وأمثالها هي من غير شك صورة صادقة لأخلاق القوم في ذلك العصر.

• • •

ولقد كثر الغش والخداع وراجت سوق الرياء والنفاق ونفقت تجارة الوشاية والنميمة فانعدمت الفضيلة وانتشرت الرذيلة وسيطرت الأنانية على النفوس فكان القوم يضحون بشرفهم ودينهم في سبيل الحصول على متاع زائل.

الدين

إذا أردنا أن نتكلم عن الدين فى أى عصر من العصور وجب علينا أن نقسم حديثنا إلي قسمين . ففي القسم الأول نتكلم عنه من حيث هو عقيدة فى نفوس معتنقيه . وفى القسم الثانى نتكلم عنه من حيث هو علم تؤلف فيه الكتب و توضع فيه الرسائل

وأظن أنه من السهل علينا أن نتكلم عن الدين من حيث هو عقيدة فى نفوس القوم بعد ان تكلمنا عن الحالة الاجتماعية ووقفنا علي ما أصاب الاخلاق من انحطاط وفساد

نستطيع أن نقول إن الناس كانوا فى شك عظيم من أمر دينهم فرجال الدين يظهرون غير ما يبطنون وخلفاء النبي فى حقيقة الدين يرتابون ولكنهم حرصا على جاههم وحبا فى المحافظة على سلطانهم يظهرون أمام الناس بالتقوى والورع بينما خلفاء النبي أنفسهم يرتكبون فى قصورهم الموبقات وينتهكون الحرمات . خلفاء النبي يشربون الخمر جهارا ليلا ونهارا ولا

يتعففون عن اتيان الغلمان ولا يقلعون عن القبض على وزارئهم وكتابهم وقتلهم أو القائهم فى السجن ثم يستولون على أموال هؤلاء الوزراء واملاكهم وما ملكت أيمانهم

ولم يقتصر الشك على رجال الدين والخلفاء بل تعداهم الى كل فرد تقريبا. أجل لقد انتشر الالحاد بين الناس انتشارا يبعث على الدهشة ويثير الاعجاب . ويرى الباحث ذلك واضحا فى كثير من أقوال شعراء هذا العصر وكتابه . ومثال ذلك قول المعرى

ولا تحسب مقال الرسل حقا ولكن قول زور سطروه
وكان أناس فى عيش رغيد فجاءوا بالمحال فكدروه

وقوله

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

وقوله وفيه تعريض بالاسلام

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وأنت ترى الاستخفاف بالدين وأحكامه واضحا فى قول ابن الحجاج

اسقنى الخمرة التى نزلت فيـ ـها على القوم آية التحريم
أسقنيها فانى انا والقـ ـس جميعا بنوها فى الجحيم
ثم قل للشمال من أين يا ري ـح تحملت روح هذا النسيم

أترى الخضر مر لي فيك أم جز ت برضوان فى جنان النعيم

وفي قوله

يقول قوم أبصروني وقد تلفت ما بينهم سكرا
قم فالحق الظهر ولو ركعة فالناس قد صلوا بنا العصرا
فقلت ما أحسن ما قلتم أقوم حتى الحق الظهرا

(الظهر فى البيت الأخير بفتح الظاء)

وأقوال الشعراء التى تنم على الاستهزاء بالدين وانكاره كثيرة لا يسمح المقام بأيرادها فنكتفى بما اسلفنا . وكانوا ينضجرون من شهر رمضان ويتأففون منه . يتبين لنا ذلك جليا فى رسالة بعث بها ابن العميد الى أحد أصدقائه وقد جاء فيها « كتابى جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان وفى جهد ونصب من شهر رمضان وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم » ثم قال فى نفس الرسالة » وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ويلقينى الخير بقي أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه فى أن يقرب علي القمر دوره ويقصر سيره ويخفف حركته ، ويعجل نهضته وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته ويرد على غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويسمعنى النعرة فى قفا شهر رمضان »

على أن الصيام عادة هندية قديمة اقتبسها الاسلام بعد أن أدخل عليها شيئا من التهذيب . وهو ضار بالصحة لأنه تغيير فجائى لنظام المعيشة اليومية . .

ويلاحظ الباحث عن الحالة الدينية فى ذلك العصر أنه قلما يظهر رجلا ويدعى النبوة حتى يلتف حوله المؤمنون به والمؤيدون له حتى ابن الشلمغانى الذى أدعى الربوبية وطعن فى النبي لم يعدم من يلتف حوله وينتصر له . لقد ظهر الرجل وما كاد يعلن عن نفسه ويجاهر بدعوته حتى اجتمع حوله كثير من العظماء واعتنقوا تعاليمه . ومن بين هؤلاء العظماء الحسين بن القاسم وزير المقتدر بالله . وهذا لا يحدث الا فى أمة داخلها الشك فى عقيدتها وأصبحت لا تقيم لتلك المقيدة وزنا . ولعل أكبر دليل نقدمه للقارىء يعد تلك الادلة التى قدمناها والبراهين التى سردناها هو انضمام قبيلة من عرب الشام الى قيصر الروم بعد أن تركت الدين الاسلامي واعتنقت الدين المسيحى :

فالدين الذى أتى به النبي قد أصبح فى القرن الرابع الهجرى أثرا من الاثار لا أكثر ولا أقل . ولم يبق منه الا لفظه وبعض أحكامه التى تبيح للناس الزواج والطلاق وترشدهم الى نظام الوراثة . هذا هو كل ما بقى من الدين ، بل ان أشد الفرق الاسلامية بأسا وأكثرها عددا وأوسعها

قلنا ان الاخلاق قد انحطت كثيرا فى عصر الشريف الرضى . وان شاء القارىء ان يقف على ماوصلت اليه من التدهور والفساد فما عليه الا ان يطلع على الجزء الثالث من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي . فلقد حوى هذا الجزء من بذىء القول مالا يصدر فى العصر الحاضر — عصر الفساد — كما يقولون — من أى كائن مهما تأنق فى الوقاحه وتعمق فى السفاهة . ومالا تستطيع اعظم المجلات الهزلية فى الشرق او فى الغرب نشر بيت واحد من الابيات الكثيرة التى وردت فى الجزء المذكور وفى غيره من الكتب والدواوين . ومثال ذلك قول ابن الحجاج وهو من الشعراء المجيدين:

إياك والعفة اياكا إياك أن تفسد معناك
أنت بخير ياأبا جعفر مادمت صلب الاير نياك
فنك ولو أمك واصفع ولو أباك إن لامك فى ذاكا

وقول ابن سكرة الهاشمى وهو من ولد على بن المهدى بن المنصور الخليفة العباسى

عشقت لاحين قينة عطفت قلبي بالحسن كل منعطف
ورمت نيكاها فكيف به لولا سفاهى والبدع من حرفى
قلت ارفقى بالشريف فابتسمت عن لؤلؤ ما اعتزى الى صدف
عجبا وابدت كالقعب عض له إيرى على بيضه من الأسف

وهذه الأشعار وامثالها هى من غير شك صورة صادقة لأخلاق القوم فى ذلك العصر .

. . .

لقد كثر الغش والخداع وراجت سوق الرياء والنفاق ونفقت تجارة الوشاية والنميمة فانعدمت الفضيلة وانتشرت الرذيلة وسيطرت الانانية على النفوس فكان القوم يضحون بشرفهم ودينهم فى سبيل الحصول على متاع زائل .

أثر هذه الحالة السيئة فى نفس الشريف الرضى فانطلق لسانه بالشكوى مما يلاقيه فى حياته . قال

ضاق الزمان فلا صديق يرتجى
للنائبات ولا حبيب يشفق
وطغى على فكل رحب ضيق
ان قلت فيه وكل حبل يخنق

الدين

اذا أردنا أن نتكلم عن الدين فى أى عصر من العصور وجب علينا أن تقسم حديثنا الى قسمين . فى القسم الاول نتكلم عنه من حيث هو عقيدة فى نفوس معتنقيه . وفى القسم الثانى نتكلم عنه من حيث هو علم تؤلف الكتب وتوضع فيه الرسائل

وأظن أنه من السهل علينا أن نتكلم عن الدين من حيث هو عقيدة فى نفوس القوم بعد ان تكلمنا عن الحالة الاجتماعية ووقفنا على ما أصاب الاخلاق من انحطاط وفساد

نستطيع أن نقول ان الناس كانوا فى شك عظيم من أمر دينهم فرجال الدين يظهرون غير ما يبطنون وخلفاء النبي فى حقيقة الدين برتابون ولكنهم حرصا على جاههم وحبا فى المحافظة على سلطانهم يظهرون أمام الناس بالتقوى والورع بينما خلفاء النبي أنفسهم يرتكبون فى قصورهم الموبقات وينتهكون الحرمات . خلفاء النبي يشربون الخمر جهارا ليلا ونهارا ولا

يتعففون عن اتيان الغلمان ولا يقلعون عن القبض على وزرائهم وكتابهم وقتلهم أو القائهم في السجن ثم يستولون على أموال هؤلاء الوزراء واملاكهم وما ملكت أيمانهم

ولم يقتصر الشك على رجال الدين والخلفاء بل تعداهم الى كل فرد تقريبا . أجل لقد انتشر الالحاد بين الناس انتشارا يبعث على الدهشة ويثير الاعجاب . ويرى الباحث ذلك واضحا في كثير من أقوال شعراء هذا العصر وكتابه . ومثال ذلك قول المعرى

ولا تحسب مقال الرسل حقا ولكن قول زور سطروه
وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالمحال فكدروه

وقوله

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

وقوله وفيه تعريض بالاسلام

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وانت ترى الاستخفاف بالدين وأحكامه واضحا في قول ابن الحجاج

اسقني الخمرة التي نزلت فيـ ـها على القوم آية التحريم
أسقنيها فانني انا والقـ ـس جميعا نبوها في الجحيم
ثم قل للشمال من اين ياريـ ـح تحملت روح هذا النسيم

أترى الخضر مرلى فيك أم جز ت برضوان فى جنان النعيم

وفى قوله

يقول قوم أبصرونى وقد تلفت ما بينهم سكرا
قم فالحق الظهر ولو ركعة فالناس قد صلوا لنا العصرا
فقلت ما أحسن ما قلتم أقوم حتى الحق الظهرا

(الظهر فى البيت الأخير يفتح الظاء)

واقوال الشعراء التى تنم على الاستهزاء بالدين وانكاره كثيرة لايسمح المقام بأيرادها فنكتفى بما اسلفنا . وكانوا يتضجرون من شهر رمضان ويتأففون منه . ويتبين لناذلك جليا فى رسالة بعث بها ابن العميد الى أحد أصدقائه وقد جاء فيها (كتابى جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان وفى جهد ونصب من شهر رمضان وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم (ثم قال فى نفس الرسالة) وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ويلقينى الخير باقى أيامه وخاتمته ؛ وارغب اليه فى أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره ويخفف حركته ؛ ويعجل نهضته وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته ويرد على غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويسمعنى النعرة وقفا شهر رمضان)

على أن الصيام عادة هندية قديمة اقتبسها الاسلام بعدان أدخل عليها شيئًا من التهـذيب وهو ضار بالصحة لأنه تغيير فجائى لنظام المعيشة اليومية . . .

ويلاحظ الباحث عن الحالة الدينية فى ذلك العصر أنه قلما يظهر رجل ويدعى النبوة حتى يلتف حوله المؤمنون به والمؤيدون له حتى ابن الشلمغانى الذى أدعى الربوبية وطعن في النبي لم يعدم من يلتف حوله وينتصر له . لقد ظهر الرجل وما كاد يعلن عن نفسه ويجاهر بدعوته حتى اجتمع حوله كثير من العظماء واعتنقوا تعاليمه . ومن بين هؤلاء العظماء الحسين بن القاسم وزير المقتدر بالله . وهذا لا يحدث الا فى أمة داخلها الشك فى عقيدتها وأصبحت لا تقيم لتلك العقيدة وزنا . ولعل أكبر دليل نقدمه للقارىء بعد تلك الادلة التى قدمناها والبراهين التى سردناها هو انضمام قبيلة من عرب الشام الى قيصر الروم بعد أن تركت الدين الاسلامى واعتنقت الدين المسيحى :

فالدين الذى أتى به النبى قد أصبح فى القرن الرابع الهجرى أثرا من الاثار لا أكثر ولا أقل . ولم يبق منه الا لفظه وبعض أحكامه التى تبيح للناس الزواج والطلاق وترشدهم الى نظام الوراثة . هـذا هو كل ما بقى من الدين ، بل ان اشد الفرق الاسلامية بأسا وأكثرها عددا وأوسعها

نفوذا أباحت اللواط وأوجبت قتل الغلام الذى يمتنع علي من يريد الفجور به كما أباحت نكاح البنات والأخوات وشرب الخمر .

واذا علمنا أن الناس فى ذلك العصر كانوا يسيرون على قاعدة « الغاية تبرر الوسيلة » وجب علينا الا ندهش إذا رأينا قوما ينتصرون للدين ويذودون عنه طالما عاد عليهم من وراء ذلك خير وجاءتهم منفعة . وان فشلوا فى اتخاذ الدين وسيلة للكسب وطريقا الى نيل المارب اجتهدوا فى تحويره وتأويله فان استعصى عليهم ذلك تركوه وراء ظهورهم ناظرين اليه نظرة احتقار وازدراء .

هذا رجل يريد أن يتخذ الدين وسيلة للحصول على ما يبتغيه فيزعم أنه يدعـو الى امام من آل البيت وما هى الا عشية وضحاها حتى التفت حوله الجموع الهائلة وتمكن هذا الرجل من اقامة دولة القرامطة فى البحرين.

ولقدسار هؤلاء القرامطة الى مكة وأعملوا سيوفهم فى رقاب الحجاج الأبرياء وملؤوا زمزم بأشلائهم ثم أغاروا علي الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود منها وحملوه معهم الى البحرين ثم أغاروا على بلاد الشام وارتكبوا فيها من الفظائع ما تشمئز منه الانسانية .

لسنا نشك فى أن الدين الذى أتى به محمد قد قضي نحبه فى ذلك العصر ولسنا نرتاب فى أن المسلمين قد وصلوا الى حالة دونها حالة العرب

أيام الجاهلية . والا فما هذا النزاع وما هذا الخصام وما هذه الفرقة وما هذا الانقسام وما هـذه الحروب المستمرة وما هذا التنافر والتدابر وما هـذا التطاحن والتقاتل وما هذه القلاقل وهاتيك الاضطرابات وما هـذه الفتن والثورات وما هذه الانانية التي استولت على النفوس وطغت على كل شيء وما هذا الغش وما هذا الخداع وما هذا المكر وما هـذا النفاق وما هـذا التملق وما هذا الرياء وماهذه الخمر التي تشرب بشراهة وماهذا الاسراف في الشهوات وما هـذا التنافس في ارتكاب الموبقات وما هـذا التسابق في انتهاك الحرمات وما هذا الاعتداء على الأعراض وما هـذا الاقبال على الغلمان ؟؟؟؟

أليست هذه هي الاشياء التي أتى الاسلام لازالتها والقضاء عليها فنجح نجاحا تاما عند ما كانت النفس الاسلامية ساذجة اقتنعت بأنها خلقت لعبادة الله وحده وانها تعيش لرفع كلمة الله والجهاد في سبيل الدين وأنها تموت على هذا الدين . ولـكن الدين الاسلامي نفسه فشل فشلا تاما في القضاء على هذه النقائص التي ذكرناها في القرن الرابع اذ كانت النفس الاسلامية تريد أن تستأثر بكل شيء وتنفرد بكل شيء وتحصل على كل شيء .

سيغضب الذين يسيرون على قاعدة « اذكروا محاسن موتاكم علينا غضبا شديدا وربما وجهوا الينا كثيرا من الشتائم والسباب ورمونا بالكفر

واتهمونا بالالحاد. ونحن لا يهمنا هذا أو ذاك انما يهمنا شيء واحد وهو اظهار الحقيقة التي هي فوق كل اعتبار .

***

تكلمنا عن الدين من حيث هو مظهر في نفوس المسلمين والان ننتقل الى الكلام عنه من حيث هو علم يكتب فيه الكاتبون ويبحث فيه الباحثون .

لم يعرف العرب أيام النبي غير القرآن والحديث فأقبلوا عليهما يدرسونهما ويستنبطون منهما الاحكام ويصدرون الفتاوى . وظلوا كذلك طيلة أيام أبي بكر وعمر وصدرا من خلافة عثمان . وفي أيام هذا الخليفة ابتدأ المسلمون يختلطون بغيرهم من الامم كالفرس والروم والقبط فتأثر الشكل العلمي للاسلام . وظهرت مقالات لم يألفها المسلمون من قبل . وفي ايام بني أمية كانت تقام بمساجد البصرة مناظرات عظيمة يشتد فيها الجدال ويكثر النقاش وتختلف الآراء وتتباين الافكار . ففريق يقول بخلود فاعل الكبيرة في النار وفريق يقول غير هذا . واختلف المسلمون في التوحيد والوعد والوعيد فترتب على ذلك انقسام المسلمين الى أقسام عدة هي الأشعرية والكرامية والمجسمة والمعتزلة والجبرية والمرجئة والوعيدية . وهناك قسمان آخران وهما الشيعة والخوارج . ومن هذه الاقسام الرئيسة

ظهرت فرق لا عدد لها نذكر منها الواصلية والهذيلية والنظامية والخايطية والبشرية والمعمرية والمزدارية والهشامية والجاحظية والجهمية والنجارية والضرارية والأزارقة والنجدات والعاذرية والعجاردة والصفرية والحمزية والميمونية والمكرمية والمعلومية والمجهولية والكيسانية والمختارية والباقرية والافطحية والاسماعيلية والباطنية والاثنى عشرية والسليمانية والصالحية والمنصورية والخطابية والكيالية واليونسية والنصرية والاسحاقية وغير هذه مما لا يتسع المقام لذكره فنكتفي بما أوردناه .

ولقد كانت هذه الفرق لا تملك إلا الدليل والبرهان يوم أن كانت الخلافة قوية السلطان عزيزة المكان . ولكن لما ضعف أمر الخلافة وتقلص نفوذ الخليفة العباسي عمدت هذه الفرق إلى السيف فاتخذته وسيلة لتحقيق ما ربها فقامت الدولة الفاطمية في شمال افريقية وامتد ملكها فشمل مصر وبلاد العرب والجزء الجنوبي من بلاد الشام . وقامت الدولة العلوية في طبرستان وانشأ الزيدية دولة في بلاد اليمن . ولقد كثرت المعارك الدموية بين السنية والحنابلة وبين السنية والشيعة في بغداد .

* * *

بينما كانت هذه الفرق السياسية تتسابق في تحقيق أمانيها بحد السيف . كان العلماء والباحثون يضعون الكتب الدينية المختلفة ويتناولون القرآن

بالتفسير والشرح فكتب الجاحظ فى اعجاز القرآن ووجوهه، وكان النظام لا يرى أن القرآن معجز لبلاغته وأن العرب كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله . وقام الباحث المدقق ابن الراوندى فألف كتابا طعن فيه على القرآن طعنا شديدا ولكن يد الظلم امتدت الى الرجل فأهلكته فذهب ضحية البحث العلمى ولقد تصدى لمعارضة القرآن غير واحد من الباحثين منهم المتنبي فى كتاب لم تسعدنا الأيام برؤيته والمعرى فى كتابه رسالة الغفران .

الحالة الفكرية

إنه وان كانت الامبراطورية العربية قد انقسمت الى دويلات صغيرة ، الا أن هذه الدول قد تعاونت على قيام نهضة عظيمة لا مثيل لها في تاريخ المسلمين . والدول التى ساهمت فى قيام تلك النهضة هى الدولة المروانيه بالاندلس والدولة الفاطمية بمصر والدولة الحمدانية فى حلب والموصل والدولة البويهية فى العراق وايران والدولة الزيارية فى طبرستان والغزنوية في أفغانستان وشمال الهند والدولة السامانية فى تركستان . وتبارى ملوك المسلمين وأمراؤهم ووزراؤهم وعظماؤهم فى كل مكان وفى كل مصر فى تقريب العلماء والشعراء والأدباء وتشجيع كل من يشتغل بالعلم بغض الظر عن عقدته أو جنسيته فاشترك الديلم والترك والفرس واليونان فى إشعال نيران تلك الحركة العلمية وظهر العلماء والشعراء فى بلدان متعددة وأمصار كثيرة . وأنشئت المكاتب الكبرى التى تحوى آلاف الكتب فى بلاد الأندلس ومصر وبخارى وتنافس الناس فى اقتناء المؤلفات حتى إنك لاتجد عظيما من

العظماء الا وفى داره مكتبة حوت كثيرا من المجلدات الادبية والتاريخية والدواوين الشعرية .

ويلاحظ الباحث فى تاريخ ذلك العصر أن ملوك المسلمين كانوا على درجة عظيمة من الثقافة .وقلما نظفر بملك لم ينظم شعرا ومن لم ينظمه فقد كان يحفل به وبقائليه .

فاشتهر من آل بويه عضد الدولة وكان هذا يميل الى الشعر ميلا عظيما ويجزل صلة من يفد عليه من الشعراء فقصده المتنبي والسلامى وغيرهما من شعراء عصره .

وكان هو نفسه يقول الشعر وله قصيدة جاء فيها .

ليس شرب الكاس الا فى المطر وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى ناعمات فى تضاعيف الوتر

وكان عز الدولة بختيار يقول الشعر كذلك ومن نظمه قوله

فياحبذا روضتنا نرجس تحيى الندامى بريحانها
شربنا عليها كاحداقنا عقارا بكاس كاجفانها
ومنا من السكر مابيننا نجرر ريطا كقضبانها

***

ثم ان ملوك بويه كانوا يختارون وزراؤهم وكتابهم وعمالهم ممن

ضربوا بسهم وافر فى الأدب . فركن الدولة فى ايران استوزر بن العميد الكاتب العالم المشهور الذى يقول فيه المتنبي

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كانما رد الاله نفوسهم والأعصرا

وبهاء الدولة فى العراق استوزر سابور ابن اردشير فأنشأ هذا الوزير مكتبة عظيمة جعل دخولها مباحا لكل أحد. ومعز الدولة بن بويه استوزر الحسن المهلبي وكان هذا شاعرا أديبا .

على أن أكثر الوزراء تأثيرا فى هذه النهضة هو الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة . وقد ذكره صاحب يتيمة الدهر فقال « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب » ثم قال « وكانت أيامه للعلم والعلماء والادباء والشعراء . وحضرته محط رحالهم ومترع آمالهم. وأمواله مصروفة اليهم، وصنائعه مقصورة عليهم » ثم قال « ولما كان نادرة عطارد فى البلاغة وواسطة عقد الدهر فى السماحة جلب اليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل وقوال فصل . وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع الافهام وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر

ويكاد يدخل فى حد الأعجاز » .

ومن الشعراء الذين وفدوا عليه السلامي والمأمونى والبديهي والرستمى والزعفرانى والضبي والحسن بن عبد العزيز الجرجانى وأبو محمد الخازن وأبو الفضل الهمذانى وأبو العلاء الاسدى وأبو طالب المأمونى . ومدحه مكاتبة الشريف الرضى كما رثاه لما مات بقصيدة تعد آية فى قوة الأسلوب ومتانة التركيب .

* * *

وما يقال فى البويهيين يقال فى الحمدانيين لا سيما سيف الدولة ممدوح المتنبي . فقد كان هذا أديبا شاعرا . ومن أمثلة نظمه قوله

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ... علي الجود كنا والحواشى على الارض
يطوف بكاسات العقار كانجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
يطرزها قوس الغمام بأصفر ... علي أحمر فى أخضر تحت مبيض
كاذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقد اجتمع ببابه كثير من الشعراء منهم المتنبى وابو فراس الحمدانى والنامى والناشىء الأصغر وأبو القاسم الزاهى وأبو الفرج الببغاء .

* * *

ليس من الضروري أن نتكلم عن الدول الاسلامية — وما بذله ملوكها من مجهودات صادقة فى رفع شأن الأدب — دولة دولة وانما يكفينا أن نقول إن ملوك المسلمين ساروا على وتيرة واحدة فى تشجيع الشعراء والعلماء والادباء .

ولئن كنا قد تكلمنا عن الدولتين البويهية والحمدانية وأشرنا الى من نبغ فيها من شعراء أو أدباء فلأن أكثر هؤلاء كان علي اتصال تام بالشاعر الكبير الشريف الرضى تدور بينه وبينهم المكاتبات شعرا ونثرا . وقد رثى الشريف أكثرهم بقصائد خالدة .

ولم يقف أمر النهضة عند حد الشعر بل سري الى جميع العلوم والفنون . واستقرت الكتابة علي أسلوب ابتكره ابن العميد . ونضج النقد الشعرى فترتب على هذا ظهور مؤلفات جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل كتاب الموازنة بين الطائيين ابى تمام والبحترى للامدى وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ونقد شعر المتنبى للصاحب بن عباد وسرقات المتنبى للحاتمى وكتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيد القيروانى الى غير ذلك من الكتب.

وتقدم التأليف تقدما عظيما فظهرت المعجمات اللغوية مثل مختار الصحاح للجوهرى ومحيط المحيط لابن عباد ووضعت الكتب التاريخية

القيمة مثل كتاب مروج الذهب للمسعودى وتجارب الامم لابن مسكويه كما وضعت الكتب الادبية التى نعتمد عليها عند بحثنا فى الوقت الحاضر مثل يتيمة الدهر للثعالبى والأغانى لأبى الفرج الاصبهانى

ونما علم الجغرافيا نموا محسوسا ومن أشهر من ألفوا فى هذا العلم البلخى والاصطخرى وابن حوقل صاحب كتاب « المسالك والممالك » والمقدسى صاحب كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ». ونالت الجغرافية الفلكية عناية فائقة فانشئت المراصد فى كثير من البلدان واخترعت الاسطرلاب .

وخطي علم الطب خطوة واسعة فى سبيل التقدم ونبغ فيه كثيرون منهم ابن سينا . واهتموا بالصيدلة اهتماما عظيما فكشفوا كثيرا من الأدوية ووضعوا للصيدليات نظاما خاصا . كما أنهم وضعوا علم النبات وبحثوا فى الكيمياء بحوثا يبقي أثرها حتي العصر الحاضر فهم الذين استحضروا حامض النتريك « ماء الفضة » وحامض الكبريتيك « زيت الزاج » وحامض النيتروهيدروكلوريك « ماء الذهب » وكشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه ونترات الفضة وكلوريد الزئبق «السليمانى » والراسب الأحمر « أكسيد الزئبق » وغير ذلك مما لا يسمح المقام بذكره .

ونضجت البحوث الفلسفية وكثر المشتغلون بهذا العلم . وظهرت

جمعية « اخوان الصفا » وكان أعضاؤها يلتئمون سرا ويبحثون فى الفلسفة على اختلاف أنواعها . وعرفت نظرية التطور وأصل الأنسان ولكنها لم تكن مرتبة ولا منظمة ولا معززة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة كما هى عليه اليوم وذلك لضعف وسائل البحث العلمى .

وارتقت الموسيقى رقيا عظيما ونبغ فيها كثيرون واخترع الفارابى القانون كما اجتهد غيره فى ادخال تحسين كبير على الآلات الموسيقية التى ورثوها عن أسلافهم .

وللعرب فضل كبير على الرياضات فهم الذين وضعوا علم الجبر وابتكروا فى الهندسة كثيرا .

ولقد ظهرت فى هذا العصر علوم لم تكن معروفة من قبل مثل علم التدبير المنزلى وعلم السياسة وعلم الاقتصاد السياسى وعلم العمران وفن البناء والحرب وعلم الاجتماع . ووضعت كتب فى الرقص والغناء والطهى . ونضج علم التصوف وكثر النحويون فظهر ابن جنى وابن خالويه . وتقدم الخط تقدما مدهشا على يد ابن مقلة .

فعصر الشريف الرضي أو القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبي للحركة الفكرية .

• • •

الشعر

طفر الشعر فى هذا العصر طفرة واسعة وكثر عدد الشعراء كثرة لا مثيل لها فى تاريخ الأدب العربى . ولقد امتاز هؤلاء الشعراء عمن سبقهم باطلاعهم على فلسفة اليونان والهنود والفرس وغيرهم فتمثلوا بأبطالهم. انظر الى المتنبي حين يمدح ابن العميد بقوله .

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وقمت بطليموس دارس كتبه متماسكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كانما رد الاله نفوسهم والاعصرا

وكان من نتيجة اطلاع هؤلاء الشعراء على الكتب الفلسفية أنهم تركوا مذهب من تقدمهم من حيث العناية بالألفاظ والأساليب . وقالوا الشعر حسبما تجود به القريحة ويوحيه الخاطر فأتى قولهم ولا أثر للتكلف فيه . وفى طليعة الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك المتنبى والمعري . فقد نظما فى الفلسفة على اختلاف أنواعها والحكمة ولا سيما المعرى فأنه أفرد للشعر الفلسفى ديوانا خاصا . ومثال ذلك قوله

غدوت مريض العقل والدين فالفنى لتسمع أنباء الامور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح

...

ويلاحظ الباحث ورود كثير من المعانى الطبية فى أقوال فريق من الشعراء ومثال ذلك قول ابى الفتح البستى

ان الجهول تضرنى أخلاقه ضرر السعال لمن به استسقاء

وقول المتنبى

اعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وظهرت فيه المعانى الصوفية والفقهية لظهور التصوف وشيوعه واشتغال أصحابه بالشعر ومثال ذلك قول أبى الفتح البستى

عليك بمطبوخ النبيذ فأنه حلال اذا لم يخطف العقل والفهما
ودع قول من قد قال ان قليله معين على الاسكار فاستويا حكما

وقوله

زفت إليك لنا عرائس أربع ففضضتها بالسمع وهى قصائد
فابعث الى مهورهن يأسرها ان النكاح بغير مهر فاسد

كما ظهرت فيه كثير من المعانى التى لا يدركها الا من له إلمام بعلم الفلك ومثال ذلك قول أبى الفتح البستى

قد غض من أملى أنى أرى عملى أقوى من المشترى فى أول الحمل
وأننى راحل عما أحاوله كأننى استدر الحظ من زحل

...

وظهرت فيه أبواب جديدة اقتضاها التبسط فى الحضارة والتوسع فى أسباب الرخاء فأفردوا أبوابا خاصة للأخوانيات والعتاب وشكوى الدهر والشيب والزهد والمداعبات والسلطانيات والمقارضات . ومن بين هذه الأشياء ما كان معروفا قبل عصر الشريف الرضى ولكنه في هذا العصر كثر ونما نموا ظاهرا . فالاخوانيات كقول ابى فراس

حللت من المجد أعلي مكان وبلغك الله أقصى الامانى
فأنك لا عدمتك العلا أخ لا كأخوة هذا الزمان
كسوت إخوتنا بالصفا ء كما كسبت بالكلام المعانى

وقوله : لم أؤاخذك بالجفاء لانى واثق منك بالوداد الصريح
فجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح

ومن أمثلة العتاب قول أبي فراس

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي اذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد
فصبرت كالولد التقي لبره أغضى على ألم لضرب الوالد

وكان الشعراء يجتمعون معا ويتقارضون الشعر بمعنى أن أحدهم يرتجل الشطر الاول فينبري شاعر آخر ويرتجل الشطر الثاني ويستمران على هذا حتي يقولا عدة أبيات وهذا النوع هو المقارضات الذى ذكرناها سالفا .

والمداعبات كقول الشاعر

أبا جعفر هل فضضت الصدف وهل اذا رميت أصبت الهدف
وهل جئت ليلا بلا حشمة لهول السرى سدفا فى سدف

ولقد أجاد أهل هذا العصر الوصف وتوسعوا فيه فوصفوا القصور والحدائق والبساتين والازهار والرياحين والربيع والشتاء والخريف والصيف والبرك والفوارات وأنواع الفواكه والثمار وأدوات الكتابة وآلات اللهو والطرب وبالجملة فأنهم لم يدعوا شيئا الا وصفوه . وممن أجادوا فى الوصف المتنبى ومن أمثلة ذلك قوله

يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آس يجس عليلا
ويرد غفرته الى يافوخه حتى تصير لرأسه اكليلا

وتظنه مما تزجر نفسه عنها بشدة غيظه مشغولا

والمأمونى . قال يصف المقراض

وصاحبين اتفقا على الهوي واعتنقا
وأقسما بالود والا خلاص أن لا افترقا
ضمهما أزهر كالنجم به قد وثقا

ويرى الباحث عن الشعر في هذا العصر مبالغة الشعراء فى المدح مبالغة خرجت به الي حدالمستحيل ومثل ذلك قول المتنبى

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل ا توراة والفرقان والانجيلا

وقوله

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لاعيى عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار العالمون مجوسا
يا من نلوذ من الزمان بظله حقا ونطرد باسمه ابليسا

ونظير المتنبى فى الشرق ابن هانىء الاندلسي المعروف بمتنبى الغرب. قال

ما شئت لا ماشاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الانصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الاحبار والاخبار

وقال من قصيدة أخرى

وورثته البرهان والتبيان والـ فرقان والتوراة والانجيلا
وعلمت من مكنون علم الله ما لم يؤت جبريلا وميكائيلا
لو كنت آونة نبيا مرسلا نشرت بمبعثك القرون الاولي
أو كنت نوحا منذرا في قومه ما زادهم بدعائه تضليلا

ولقد أفردوا للمجون بابا خاصا وأكثروا من ذكر العورات كما أكثروا من ذكر ما تشمئز منه النفس ويتقيأ من سماعه الانسان . وممن اشتهر بذلك ابن سكرة الهاشمي واحمد ابن الحجاج . ولقد أوردنا شيئا من هذا الشعر عند الحديث عن الحالة الاجتماعية فليرجع اليه القارىء ان شاء .

الشعراء

إن المرء ليدهش دهشة عظيمة من كثرة الشعراء الذين ظهروا فى ذلك العصر حتى ليخيل اليه وهو يبحث فى أمهات كتب الأدب أن معظم الناس فى هذا القرن كانوا يقولون الشعر .

ولقد عرف الجمهور من هؤلاء الشعراء المتنبى والمعرى وأبا فراس الحمدانى وصاحبنا الشريف الرضى وابن هانئ الأندلسى ومهيار الديلمى. ولو لم يظهر غير هؤلاء لكفى دولة الشعر فخرا . ولكن هناك شعراء آخرون ضربوا بسهم وافر فى الشعر واجادوا القول وبلغوا فيه شأوا بعيدا إلا أن الأيام عدت على دواوينهم فذهبت بها ولم يصلنا من شعرهم إلا قصائد قليلة . ومن بين هؤلاء الشعراء المأمونى وهو من ذرية المأمون الخليفة العباسى كان على حد قول الثعالبى فياض الخاطر بشعر بديع الصنعة . قال يصف الحمام

وبيت كأحشاء المحب دخلته ... ومالى ثياب فيه غير إهابي
أرى محرما فيه وليس بكعبة ... فما ساغ إلا فيه خلع ثيابى
بماء كدمع الصب فى حر قلبه ... إذا آذنت أحبابه بذهاب

توهمت فيه قطعة من جهنم ولكنها من غير مس عقاب

والسرى الرفاء الذى ولد بالموصل ونشأ بها . وابتدأ ينظم الشعر حتى أجاده فقصد سيف الدولة ومدحه وأقام عنده مدة طويلة . وكان السرى شاعرا مطبوعا يمتاز شعره بعذوبة الألفاظ ومتانة الأسلوب

قال يتشوق إلى الموصل ونواحيها وهو بحلب

أمحل صبوتنا دعاء مشوق يرتاح منك إلى الهوى المومو ق

هل أطرقن العمر بين عصابة سلكوا إلى اللذات كل طريق

أم هل أرى القصر المنيف معمما برداء غيم كالرداء رقيق

وقلالى الدير التى لولا النوى لم أرمها بقلى ولا بعقوق

***

ومن الشعراء المفلقين الذين لا يعرف الجمهور عنهم شيئا عبد الرحمن ابن الفضل الشيرازى وهو صديق حميم للشريف الرضى .

وابن نباته السعدى وهو كما وصفه صاحب يتيمة الدهر (من فحول شعراء العصر وآحادهم وصدور مجيديهم وأفرادهم الذين أخذوا برقاب القوافى وملكوا المعانى وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام مستمر النظام) قال من قصيدة فى شكوى الزمان

وما الفقر إلا للمذلة صاحب وما الناس إلا للغنى صديق

وأصغر عيب فى زمانك انه به العلم جهل والعفاف فسوق

وكيف يسر الحر فيه بمطلب وما فيه شىء بالسرور حقيق

* * *

وابو الحسن محمد ابن عبد الله السلامى الذى ولد ببغداد ونشأ بها وأقبل على أقوال المتقدمين بشغف زائد حتى أخذ منها بقسط وافر. ثم شرع ينظم الشعر وهو فى العاشرة من عمره . رحل إلى الموصل فوجد بها عثمان الخالدى وأبا الفرج الببغاء وأبا الحسين التلعفرى وغيرهم من شيوخ الشعراء .وقامت بين السلامى والتلعفرى عداوة شديدة حتى أن الاول هجا الثانى بقصائد كثيرة منها

يا شاعرا بسقوطه لم يشعر ماكنت أول طامع لم يظفر
لو كنت تعرف والدا تسموبه لم تنتسب ضعة الى تلعفر
تاه ابن بائعة الفسوق على الورى بقذال صفعان ونكهة أبخر
وبلادة فى الشعر تشهد أنه تيس ولو نصرت بطبع البحترى

***

ومن الشعراء الذين يهمنا ذكرهم فى هذا المقام مهيار الديلمى وقد كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضى وعليه تخرج فى نظم الشعر. ولقد كان مهيار يحسن اختيار الألفاظ انقادت له القوافى وسلست له فعدد منها ما شاء أن يقول فأطال وأجاد وأحسن . وبالجملة فأن شعره من النوع الموسيقى الذى يرقص الانسان ويشنف الآذان فهو شعر غنائي . ومن قوله قصيدته التى يرثي فيها استاذه الشريف الرضى

من جب غارب هاشم وسنامها ولوى لؤيا فاستزل مقامها

وغزا قريشا بالبطاح فلفها ... بيد فقوض عزها وخيامها
وأناخ فى مضر بكلكل خسفه ... يستام واحتملت له ما سامها
ومنها : بكر النعى من الرضى بمالك ... غاياتها متعود إقدامها
كلح الصباح بموته من ليلة ... نفضت على وجه الصباح ظلامها
صدع الحمام صفاة آل محمد ... صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوى شق غبارها ... والناطق العربى شق كلامها

***

وهناك شعراء لا يحصيهم العد منهم ابو الفتح البستى الكاتب القدير والشاعر المطبوع . والناشىء الأصغر . والنامى الذى كان من خواص شعراء سيف الدولة وهو عنده تلو المتنبى فى المنزلة والمرتبة ولقد كان من سوء حظ الادب العربى أن ديوان هذا الشاعر الكبير قد فقد ولم يبق مما نظمه إلا النذر اليسير . ومن الشعراء المجيدين ابو الفرج عبد الواحد البيغاء واحمد ابن دراج الأندلسى والتهامى الشاعر المعروف والميكالى والزاهى وابو الفرج الوأواء وابو الفرج الكاتب العجلى وابو الفتح ابن كشاجم وغير هؤلاء كثيرون .

الكتابة

لعل من أحب الاشياء إلى أن أحدث القارىء عن الكتابة فى عصر الشريف الرضى فالحديث عنها ممتع شيق يحدث فى النفس شيئا من الغبطة والنشاط ويغرى الباحث بالاستمرار فى البحث .

فأذا أخذت كتابا من الكتب الأدبية أو العلمية التى وضعت فى ذلك العصر وجدت المؤلف يبدأ المقدمة بالبسملة ثم يتبعها بالحمدلة ثم بالصلاة على النبى ويختمها بجملة يحسن الختام بها مثل « وما توفيقى إلا بالله » أو « وحسبى الله ونعم الوكيل » أو غير ذلك . ومن الغريب أن هذه السنة التى سنها كتاب القرن الرابع بقيت حتى العصر الحاضر. فكتاب اليوم إلا أقلهم يقدمون مؤلفاتهم بنفس العبارات التى استعملها كتاب عصر الشريف . والازهريين ـ قطعت رؤوسهم ـ غرام شديد بذكر البسملة وملحقاتها والاكثار من الصلاة على النبى وآله بعبارات مسجعة. وهذا إمعان فى البرود وتعمق فى الجمود لا يستسيغه القرن العشرون الذى نفر من عمائمهم الكبيرة وتألم من جبهم وقفاطينهم الفضفاضة . . . .

دعنا من الأزهريين وسقيم معتقداتهم وعقيم مؤلفاتهم وعليل

تصوراتهم فالوقت أثمن من أن يصرف على هذا الوجه ولننظر إلى أسلوب الكتابة فى القرن الرابع الهجرى وهو الموضوع الذى نحن بصدده . ويحسن بنا أن نقسم الحديث إلى قسمين . فنتناول فى القسم الأول الحديث عن أسلوب الترسل وهو المعروف بالنثر الفنى ونتناول فى القسم الثانى الأسلوب العلمى .

أما النثر الفنى فهو الرسائل التى تصدر من الرؤساء إلى مرؤوسيهم أو التى يتبادلها الأصدقاء والخلان ومما يدخل تحت هذا النوع المقالات المعروفة بالمقامات مثل مقامات الهمزانى . وإمام كتاب النثر الفنى فى ذلك العصر ابن العميد الذى وضع طريقة خاصة للكتابة الفنية اشتهرت فى جميع الأقطار الناطقة بالضاد وسار ذكرها بين الورى فاتبعها كل كاتب واحتذاها كل ناشىء . وتمتاز هذه الطريقه بأشياء كثيرة منها « السجع » الذى أصبح شرطا من شروط الكتابة الفنية . وهو نتيجة من نتائج الانغماس فى الحضارة والمدنية . فهو نوع من أنواع التأنق فى الكتابة والتأنق أليف لكل من تمتع بالجاه والثروة وتوفرت لديه أسباب السعادة . والسجع إذا اتقنت صناعته أكسب المعنى قوة وروعة وهو قديم فى اللغة ورد فى القرآن والحديث . وقد لاحظنا أن بلغاء الكتاب فى القرن الرابع رغبوا فيه وتسابقوا إليه . لكن بعض معاصريهم من أدعياء الفن - ولكل فن أدعياء - كلفوا به عن غير مقدرة عليه فجاء أسلوبهم باردا متكلفا تظهر عليه بوضوح وجلاء دلائل التصنع وعلامات إجهاد

القريحة .

ومن الأشياء التى امتاز بها النثر الفنى فى عصر الشريف الرضى كثرة الجناس والبديع . والجناس أو البديع يكسب العبارة رونقا ولا سيما مع السجع فقول ابى بكر الخوارزمى فى كتابه إلى نائب الوزير ابن عباد « كتبت إلى الاستاذ معاتبا مرة . ومستعتبا كرة . فما وجدت للعتاب أعتابا ولا قرأت عن الكتاب جوابا . وليت شعرى ما الذى منعه عن صلة لاتضره وتنفعنى وعن تواضع لا يضعه ويرفعنى . » لو جعله مرسلا بسيطا لم يكن له ذلك الوقع فى النفس :

***

ولقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بالأشعار فى اثناء مراسلاتهم ومثال ذلك قول الصاحب بن عباد يصف فصلا من كتب ابن العميد قال « فصل رأيته فصيح الأشارة لطيف العبارة .

اذا اختصر المعنى فشربة حائم وإن رام إسهابا اتى الفيض بالمد

وتفنن آخرون بجعل الترصيع شطرا شطرا كقول الهمزانى من رسالة إلى الخوارزمى .

إنا لقرب دار الاستاذ (كما طرب النشوان مالت به الخمر)
ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفور بلله القطر)

***

ثم إن الرسائل قد تفرعت فى ذلك العصر كما تفرع الشعر فصارت تقسم

إلى رسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء والاخوانيات والسلطانيات وغير ذلك . ويلاحظ الباحث فى هذه الرسائل كثرة ورود الامثال والحكم والاشارة إلى الحوادث التاريخية أو العلمية التى تحتاج إلى الشرح والتفسير.

بلغاء الكتاب

سعدت الكتابة فى هذا العصر كما سعد الشعر فتعاطاها الوزراء والأمراء والعظماء فأعلوا مكانتها ورفعوا شأنها وبلغوا بها شأوا بعيدا فى القوة والمتانة . وتكاثر المنشؤون تكاثر الشعراء وانتشروا فى الاقطار والامصار. وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى ملوك المسلمين الذين كانوا يتخذون وزراءهم وحجابهم ممن لهم قدم راسخة فى الكتابة . فكان الطامعون فى المناصب الكبيرة ـ وما أكثرهم ـ يجتهدون فى اتقان فن الانشاء . فمن اتقنه وبرع فيه وصل الى غايته وظفر بأمنيته ونال منصبا حكوميا رفيعا .

***

ومن بين هؤلاء الكتاب ابن العميد وقد سبقت الأشارة إليه وهو كما قال عنه الثعالبي يضرب به المثل فى البلاغة وينتهى إليه فى الأشارة بالفصاحة والبراعة مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلامتها إلى براعة المعانى ونفاستها . وقد كان يقال (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) . وزر لركن الدولة ابن بويه وقد اجتمع ببابه عدد عظيم من

الشعراء والأدباء والكتاب . وكان فوق براعته فى فن الكتابة ملما بشىء كثير من فلسفة اليونان والفرس والهنود وبغير الفلسفة من العلوم التى عرفها العرب فى عصره . وخلفه ابنه ابو الفتح ذو الكفايتين فكان كاتبا وشاعرا .

***

والصاحب اسماعيل ابن عباد وفيه يقول الثعالبى «ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلالة شأنه فى الجود والكرم . وتفرده بغايات المحاسن وجمعه أشتات المفاخر (ولقد كان الصاحب محط آمال الشعراء والأدباء فقصده خلق كثير منهم نالوا تشجيعا عظيما فمدحوه بقصائد رائعة وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم .

امتاز الصاحب بأسلوب قوى جدا فى الكتابة وبقدرة فائقة على نقد الشعر وتحليله وقد ألف كتابا نقد فيه شعر المتنبي . وكان الصاحب نفسه يقول الشعر وله أقوال كثيرة جرت مجرى الحكم ومثال ذلك قوله « لكل امرىء أمل ولكل وقت عمل » وقوله « ربما كان الامساك عن الأطالة أوضح فى الابانة والدلاله » وقوله « ربما كان الأقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور . » وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره . ولما مات الصاحب رثاه الشريف الرضى بقصيدة ربت أبياتها على المائة أجاد فيها كل الأجادة وأبدع كل الأبداع ومطلعها

أكذا المنون يقطر الأبطالا أكذا الزمان يضعضع الاجبالا ؟

أكذا تصاب الأسد وهي مدلة تحمي الشبول وتمنع الأغيالا
يا طالب المعروف حلق نجمه حط الحمول وعطل الأجمالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذي كان الأنام على نداه عيالا
من كان يقري الجهل علما ثاقبا والنقص فضلا والرجاء نوالا

***

وابراهيم بن هلال المعروف بأبي اسحاق الصابي، وهو كما قال عنه صاحب يتيمة الدهر « أوحد العراق في البلاغة ومن به تثنى الخناصر في الكتابة وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية وفيه يقول أحد شعراء عصره

أصبحت مشتاقا حليف صبابة برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق
طورا كما رق النسيم وتارة يحكي لنا الأطواق في الأعناق

وكان الصابي جميل العشرة للعلماء تكسب بالكتابة في دواوين بغداد . وكان رئيس الكتاب بها ، صدرت عنه نفائس الرسائل وله شعر جميل .

دارت بينه وبين الشريف الرضي مكاتبات كثيرة شعرا و نثرا . ولما مات الصابي رثاه الشريف بقصيدة أظهر فيها من المقدرة والبراعة ما يدهشنا كل الدهشة ويعجبنا كل الاعجاب ويغرينا باعادة هذه القصيدة المرة بعد المرة دون أن نشعر بشيء من الملل أو الضجر . قال

أعلمت من حملوا على الاعواد أرأيت كيف خباضياء النادى؟
جبل هوى لوخر بالبحر اغتدى من وقعه متتابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل وضعك فى الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد
بعد اليومك فى الزمان فأنه اقذى العيون وفت فى الأعضاد
لاينفد الدمع الذى يبكى به إن القلوب له من الامداد

وهى طويلة جدا سنوردها فى غير هذا المكان.

* * *

ولقد ظهر فى هذا العصر بديع الزمان الهمذانى والخوارزمى والميكالى والاسفرائينى وابو النصر محمد بن عبد الجبار العتبى وابو القاسم عبد العزيز بن يوسف وغير هؤلاء كثيرون.

***

أعطينا القارئ فكرة عن حالة النثر الفنى فى ذلك العصر وعن أئمته الذين حملوا لواءه ورفعوا شأنه. والآن ننتقل الى الكلام عن الاسلوب العلمى الذى يختلف عن النثر الفنى اختلافا كبيرا. فهو خال من السجع والبديع يقصد الكاتب فيه إلى غرضه بأبسط عبارة وأوضح إشارة. وقد ظهرت فيه آثار المنطق فكان الكتاب ينتقدون كل شئ ويبحثون ويدققون فى البحث ويحللون ويمحصون ويبنون اقوالهم على ادلة محسوسة وبراهين منطقية يستسيغها العقل وتطمئن اليها النفس. وأشهر هؤلاء الكتاب ابو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى. والثعالبى

صاحب يتيمة الدهر وخاص الخاص . وابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وهو أجل كتاب ظهر في هذا الموضوع . والحصري صاحب كتاب زهر الآداب . ونستطيع أن نضع مع هذا النوع من الكتاب جميع المؤرخين والمشتغلين بالرياضة والطب والفلسفة .

وهناك أسلوب ثالث يسمى بالاسلوب القصصي . وقد عنى أصحابه بجعله قريبا من العامية حتى يستطيع أن يفهمه كل أحد ويقبل على قصصهم العام والخاص ويقتنيها العالم والجاهل ومثال ذلك قصص عنتر وألف ليلة وليلة ورجوع الشيخ إلى صباه .

***

ها نحن قد قدمنا لك أيها القارىء صورة حقيقية عن العصر الذي عاش فيه الشريف الرضي ووصفنا كل ناحية من نواحي هذا العصر بما نعتقد أنه يرضي الحقيقة وحسبنا ذلك وكفى .

الفصل الثانى

أسرة الشريف الرضى

بحثت فى كتب التاريخ كثيراً لعلى أظفر بشىء يكشف لنا القناع عن اسرة الشريف ولـكن عبثا كان ذلك . فلقد ذهبت مجهوداتي أدراج الرياح ولم أعثر إلا على أخبار قليلة جداً عن أمه وأبيه وأخيـه المرتضى أجل لقد وضع الشريف كتابا خاصـا عن سيرة والده ولـكنه ضاع فيما ضاع من الـكتب ولم يصلنا منه إلا اسمه .

الشريف الرضى من نسل على بن أبي طالب فهو علوى يدين بأمامة جده على ويرى أنه أحق بالخلافة من غيره لذلك كانت أسرته من الأسر المعارضة للخلفاء العباسيين فى السر وفى الجهر والعاملة على إزالة حكمهم ومحو سلطانهم .

أما أبوه فهو الحسين بن موسى يكنى أبا أحمد ويلقب بالطاهر ذى المناقب وقد خاطبه بهاء الدولة بالطاهر الأوحد . ولد سنة ٣٠٤ هـ وكان محترما مبجلا كما كان سياسيا موفقا وكثيراً مانجح فى فض المشكلات التى

كانت تقوم بين الخلفاء العباسيين وملوك بنى بويه أو التى كانت تقوم بين أفراد آل بويه أنفسهم . وقد وصفه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بقوله « كان جليل القدر عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس ودولة بنى بويه والأمراء من بنى حمدان وغيرهم . وكان مبارك الغرة ميمون النقيبة مهيبا نبيلا ماشرع فى إصلاح أمر فاسد إلا صلح على يديه » .

والظاهر أن بعض حساد الطاهر كادوا له وسعوا بينه وبين عضد الدولة فنقم عليه وأمر بسجنه باحدى قلاع بلاد فارس فبقى بها حتى مات عضد الدولة وخلفه ابنه شرف الدولة فأطلق سراحه واستصحبه مع حاشيته حين قدم بغداد . وفى ذلك يقول الشريف الرضى :

طلوع هداه الينا المغيب ... ويوم تمزق عنه الخطوب
لقيتك فى صدره شاحبا ... ومن حلية العربي الشحوب
تغربت مستأنساً بالبعاد ... والليث فى كل أرض غريب
وأحرزت صدرك للنائبات ... وللداء يوما يراد الطبيب

وهى خمسون بيتاً .

وكثيراً ما مدح الشريف أباه بقصائد طويلة ومن أمثلة ذلك قوله من إحدى هذه القصائد .

يا ابن النبي مقالا لا خفاء به ... وأحسن القول فينا قول مختصر
رأيت كفك مأوى كل مكرمة ... إذا تواصت أكف القوم بالعسر

قدطاب فرعك واهتزت أراكته في المجد ان المعالى أطيب الشجر

وقد ولى الطاهر نقابة الفاطميين وكذا النظر فى المظالم والحج بالناس وكان ينزل عن أعماله أحيانا لأبنه الشريف الرضى تهدئة لخاطره الثائر ولأن الرجل كان قد تقدم فى السن فنالت منه الشيخوخة مانالت وأثر الهرم فى عينيه فأصبح لا يستطيع القيام بأعباء هذه الأعمال . وقدتوفى الطاهر سنه ٤٠٠ هـ بعد أن عمر أكثر من تسعين عاما . وقد رثاه ابنه الشريف بقصيدة أبدع فيها كل الابداع وأجاد فيها كل الأجادة ومطلعها .

وسمتك حالية الربيع المرهم وسقتك ساقية الغمام المرزم
وعدت عليك من الحيا بموعد لا عن قلى ومن الندى بمسلم
قدكنت أعذل قبل يومك من بكى فاليوم لى عجب من المتبسم
وأذوددمعى أن يبل محاجرى فاليوم أعلمه بما لم يعلم
لا قلت بعدك للمدامع كفكفى من عبرة ولو أن دمعى من دمى
إن ابن موسى والبقاء إلى مدى أعطى القياد بمارن لم يحطم

وهى أكثر من تسعين بيتا .

ورثاه أبو العلاء المعرى بقصيدة فذة جاء فيها

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف
الطاهر الآباء والأبناء والـ أثواب والآداب والآلاف

هلا دفنتم سيفه فى قبره معه فذاك له خليل واف
يالابس الدرع الذى هو تحتها بحر تلفع فى غدير صاف
فارقت دهرك ساخطا أفعاله وهو الجدير بقلة الانصاف

* * *

أما أخوه فهو على المرتضى تولى نقابة الطالبيين بعد وفاة أخيه الرضى وكان أديباً شاعراً وله تصانيف فى فقه الشيعة وأصول الدين وقد وصفه ابن بسام بقوله « كان هـذا الشريف امام أئمة العراق بين الاختلاف والاتفاق إليه فزع علماؤها وعنه أخذ عظماؤها » وكان المرتضى يقول الشعر.

وأم الشريف هى فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن على بن عمر بن على ابن الحسين بن على بن أبي طالب . ملك جدها الحسن بلاد الديلم وقامت بينه وبين ملوك الدولة السامانية حروب كثيرة . وتوفى بطبرستان سنة ٣٠٤ هـ

وكانت فاطمة تعنى بشؤون ولديها عناية عظيمة وتحرص على تثقيفهما وتهذيبهما . ولقد روى أبو الحديد المتقدم ذكره أنها دخلت يوما المسجد الى عبد الله محمد بن النعمان أحد فقهاء عصره وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضى وعلى المرتضى وكانا صغيرين فقام اليها وسلم ثم قالت أيها الشيخ هذا ولداى قد أحضرتهما اليك لتعلمهما الفقه فتولى تعليمهما . ولقد توفيت فى ذى الحجة سنة ٣٨٥ هـ فرثاها

ابنها الرضى بقصيدة تسيل العبرات نذكر منها .

أبكيك لو نقع الغليل بكائى وأقول لو ذهب المقال بدائى
وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا لو كان بالصبر الجميل عزائى
طوراتكاثرنى الهموم وتارة آوى الى أكرومتى وحيائى
كم عبرة نهنهتها بأناملى وسترتها متجملا بردائى
أبدى التجلد للعدو ولو درى بتململى لقد اشتفى أعدائى
فارقت فيك تماسكى وتجملى ونسيت فيك تعززى وابائى

ولانعرف شيئاعن زوجة الشريف ولا عن أولاده اللهم إلا ابنه عدنان فانه تولى نقابة الفاطميين بعد وفاة عمه المرتضى . كما أننا لم نتوصل الى شيء من أخبار أقاربه ولا نعرف الا شعرا قاله فى مدح خاله ورثاء عمه .

وحسبنا أن نقول ان بيت الشريف من البيوت العريقة التى جمعت بين شرف الحسب وشرف العلم ونالت عند ملوك آل بويه وخلفاء بنى العباس مكانة رفيعة ومنزلة سامية ودرجة عالية وهى جديرة بما نالت ، خليقة بما كسبت .

نسبه

(١)

الشريف المرضى هو أبو الحسن بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب جد النبي . ثم اختلف المؤرخون فيمن بين عدنان واسماعيل . والحق أننا نظلم التاريخ اذا ذهبنا إلى مايذهب اليه المؤرخون دون أن نفكر تفكيراً دقيقاً ونبحث بحثاً عميقا غير متأثرين بعقيدة أو مذهب . ولكي نقدم للقارىء حكما صحيحا بعيدا عن السفسطة الدينية كل البعد يجب علينا أن نضع هذه القضية أمامنا كما رواها مؤرخو العرب ومن نحا نحوهم من كتاب العصر الحاضر ثم نبدى مايعن لنا من اعتراضات وملاحظات .

(١)

زعموا أن ابراهيم لما فشل فى هداية قومه فر إلى فلسطين مستصحبا معه زوجه سارة . ومن فلسطين ارتحل إلى مصر وبها يومئذ ملوك

الهوكسوس . وكانت سارة جميلة . وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات فأظهر ابراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتخذها زوجاً له

الاعتراض :

نحن لانستطيع أن نصدق مارواه المؤرخون بهذا الصدد بل نراه أشبه بالأساطير منه بالتاريخ الصحيح .

(٢)

ثم رووا أن الملك أراد أن يتخذ سارة زوجة له فرأى فى المنام أنها ذات بعل فردها الى ابراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال مع ابراهيم ولم تلد ؛ دفعته ليدخل بهاجر فدخل بها فلم تبطىء أن حملت وولدت له اسماعيل . وبعد أن شب وترعرع حملت سارة وولدت له اسحاق .

ونحن لانستطيع أن نطمئن الى هذا القول

٣

ثم ذكروا أن اسحاق قد شب وترعرع الى جانب اسماعيل وتساوى عطف الأب على الاثنين فاغضب ذلك سارة لأنها رأت أن هذه التسوية بين ابنها وابن هاجر أمتها غير لائقة بها . وأقسمت ألا تساكن هاجر ولا ابنها حين رأت اسماعيل يضرب أخاه . وأحس ابراهيم أن العيش لايطيب له وهاتان المرأتان فى مكان واحد فذهب بهاجر وابنها ميمما شطر الجنوب حتى وصل الى الوادى الذى تقوم به مكة اليوم . وترك اسماعيل وأمه وترك لهما بعض ما يتبلغان به . واتخذت هاجر عريشا أوت اليه مع ابنها وعاد ابراهيم من حيث أتى .

الاعتراضات :

مامعنى ذهاب ابراهيم بابنه الصغير وأمه هاجر الى واد سحيق قفر صحراوى لاماء فيه ولانبات ولاعمران ؟ ؟ ؟ هل أراد أن يهلكهما فقذف بهما الى هذه الصحراء المحرقة ؟ ؟ ؟ كيف رضى ابراهيم أن يحمل زوجه وابنه وفلذة كبده ويذهب بهما الى هذه الصحراء التى لاعيش فيها ولاماء ولاسكن ولازرع ولاعمران ويتركهما فى الحر الشديد والشمس المحرقة صيفا وفى البرد القارس شتاء يعانيان آلام الجوع والعطش ويذهب

هو من حيث أتى ليعيش مع زوجته الأولى فى سعادة وهناءة ؟؟؟؟ وهل بلغت القسوة بابراهيم مبلغها فقذف بابنه الصغير الى جوف هذه الفلاة؟ ؟ وكيف أمن اعتداء الناس على عرض زوجته هاجر وقد كانت فى ريعان شبابها ؟ ؟ ؟ وهل ضاقت فلسطين حتى أن ابراهيم لم يجد أمامه مكانا صالحا لاسكان هاجر وابنها اسماعيل فذهب إلى هذا الوادى البعيد ؟ ؟ ؟ ولم لم يسكنه بالقرب منه ويجعل له بيتا يعيش فيه هو وأمه بدلا من أن يذهب بهما الى هذه الصحراء المحرقة ؟ ؟ ؟ ان ابراهيم أرأف من أن يعمل مثل هذا العمل وأرحم بابنه الصغير من أن يقصيه الى هذه الصحراء الجرداء .

ثم قالوا إن ابراهيم ترك ابنه اسماعيل وأمه ومعهما مايتبلغان به من زاد . ولنا أن نسأل هل يموتان جوعا اذا نفد منهما هذا الزاد؟؟ ؟ وكيف يتركهما على صخرة دون مسكن يأويان اليه ؟؟؟ ألا يتحرك قلب ابراهيم لمثل هذا الأمر ؟؟؟ ألا يشفق بابنه الصغير فيتركه دون مسكن وبغير قوت ؟؟

مثل هذه الاسئلة نلقيها على أنفسنا ولا نستطيع أن نجيب عنها . وعجزنا عن الاجابة عنها اجابة يقبلها العقل ويؤيدها المنطق يجعلنا نشك فى أمر هذه القصة .

إن الذى يقبله العقل هو أن ابراهيم أسكن ابنه فى فلسطين على مسافة غير بعيدة منه . وكان يتردد عليه لزيارته هو وأمه . ثم إنه من

المعقول ان اسماعيل تزوج وخلف أولادا أخذوا يتكاثرون . بمرور الزمن وأن هؤلاء الابناء كانوا يسكنون فى جنوب فلسطين ثم انهم كانوا يشتغلون بنقل البضائع وحراسة القوافل وربما اشتغلوا بالتجارة . وكانوا يرحلون الى مكة فاختلطوا بالعرب واندمجوا فيهم بعد أن تزوجوا منهم وأصبحوا بمضى الايام عربا فى عاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ولغتهم ودينهم . هـذا هو الحق الذى لا ريب فيه وما عداه فهو باطل.

* * *

لا مرية فى أن بسطاء الأحلام من الناس سيفرقون عندما يصطدمون بهذه الحقيقة . ولـكى نخفف من فرقهم ونقلل من روعهم نقول : —

ورد فى القرآن مانصه « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم الخ ... » وكان النبي ينفذ ماجاء فى هـذه الآية فيعطى « مؤلفة القلوب » أى الضعفاء فى الايمان شيئا من المال .وبقى كذلك حتى وفاته : فلما كانت خلافة أبي بكر طلب «مؤلفة القلوب» إعطاءهم ما كان مخصصا لهم حسب ماورد فى القرآن . وفعلا حصلوا على أمر ابي بكر فى دفعه لهم كتابة . وذهبوا الى عمر ابن الخطـاب الذى كان كوزير له . فلما قرأ عمر هـذا الأمر مزقه وقال فى مقام التعليل « إن رسول الله كان يعطيكم هـذا المال ليقربكم من الاسلام ويزيل به شركم وفسادكم عن المسلمين . واليوم وقد أعز الله دينه وأعلا شوكته

ولم يبق من حاجة اليكم وإلى تأليف قلوبكم . ان ثبتم فى الاسلام ثبتم وإلا فليس بيننا وبينكم إلا السيف » ولم يعطهم شيئا .

فظاهر هنا أن عمرا قد خالف ماجاء فى القرآن كما خالف ما أقره النبى فى حياته . على أننا لانريد أن نذكر ذلك إنما نريد أن نذكر شيئا أهم من هذا بكثير . نريد أن نقول إن الأسلام قد استخدم المال كوسيلة لكسب الانصار والأعوان وجلب الأشياع والأتباع . فاذامن المعقول جدا ان يستخدم الأسلام غير هذه الوسيلة لنفس الغرض . وقد حدث ذلك فعلا . فابتدعت قصص كثيرة وردت فى القرآن بغير حساب . ومن هذه القصص مايدور حول ذهاب اسماعيل إلى مكة وإقامته بها . وقد سبق أن ناقشنا هذا الرأى مناقشة منطقية فاتضح فساده لكل من ألقى السمع وهو شهيد .

وإذا كانت عادة إعطاء « المؤلفة قلوبهم » قد وجدت من يبطلها فان البحوث التاريخية التى وردت فى القرآن لم تجد من يبطلها ويردها إلى حقيقتها . فلا ضير اذا على الأسلام والمسلمين إن نحن حاولنا ذلك

(ب)

قريش

قبيلة من قبائل العرب كانت تعيش عيشه عادية تشتغل بالتجارة وبنقل البضائع وحراسة القوافل . وكانت مكة تحت حكم الجرهميين . وهولاء انغمسوا فى الترف والنعيم فضعف أمرهم فقامت خزاعة وهى من أكبر قبائل العرب وأعظمها اذ ذاك واستولت على مقاليد الحكم فى مكة فهرب الجرهميون وتبعهم الاسماعيليون . وبقى أمر مكة فى فى يد خزاعة إلى أن انتزعه منهم قصى ابن كلاب وهو الجد الخامس للنبى .

وقد كان قصى رجل جد ونشاط وعمل متواصل لذلك مالبث أن أثرى ثراء عظيما من اشتغاله بالتجارة . وكانت سدانة مكة فى خزاعة لحليل ابن حبشية وكان رجلا ثاقب النظر حسن التقدير فما ابطأ حين طلب قصى يد بنته حبى أن رحب به وزوجه منها . ومات حليل بعد أن أوصى بمفتاح الكعبة لحبى زوجة قصى ولكن هذه اعتذرت عن ذلك وجعلت المفتاح لابى غبشان الخزاعى وكان هذا سكيرا فأعوزه

الشراب يوما فباع مفتاح الكعبة قصيا بزق من الخمر . وهنا كادت الحرب أن تقع بين خزاعة وقريش فاستعمل قصى ماله من نفوذ وجاه وجمع العرب حوله وبذلك تمكن من طرد خزاعة واستقل بالأمر وحده

وكان عبدالدار أكبر أبناء قصى لذلك خلف أباه فى الاشراف على الكعبة ثم أعقبه أبناؤه من بعده . ولكن الحسد قد دب بين أبناء الأعمام فأجمع بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل على أن يغتصبوا ما بأيدى أبناء عمهم . وانقسمت قريش الى قسمين : قسم يؤيد أبناء عبد الدار وقسم يؤيد أبناء عبد مناف . وأوشكت الحرب أن تقوم بين الطرفين لولا أن ركن الناس الى الصلح على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة وأن تبقى الحجابة والندوة واللواء لبنى عبد الدار ورضى الفريقان بذلك .

وكان هاشم كبيرا فى قومه وكان رجلا غنيا فولى السقاية والرفادة ويلاحظ أن قصيا هو أول من أوجد الرفادة وفرضها على قومه فكان يأخذ من كل منهم شيئا من المال ليصنع به طعاما يقدمه للفقراء من الحجاج وكان هاشم كريما جوادا وهو الذى سن رحلتى الشتاء والصيف . وظل هاشم تتقدم به السن حتى مات فخلفه أخوه المطلب . وترك هاشم ولدا صغيرا يسمى شيبة ظل مع أمه بيثرب . ولما رحل المطلب الى يثرب أحضر الغلام ودخل به مكة فرآه القوم فظنوه عبدا اشتراه

المطلب فتصايحوا عبدالمطلب عبد المطلب فغلب على الغلام هذا الاسم وعرف به بين الناس . وتولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب . ولما كانت السقاية من الأمور الشاقه التى تحتاج إلى عناء شديد والى عمال يجلبون الماء من جهات مكه المختلفة ، فكر عبد المطلب فى حفر بئر لازالت باقيه حتى اليوم وهى المعروفة ببئر زمزم وتم له ما أراد . ثم تزوج فأنجب أولادا كثيرين منهم ابو طالب وهذا خلف عليا وهو الجد الاكبر فى الأسلام لصاحبنا الشريف الرضى .

يتبين لنا من هذه الاسطر القليلة التى كتبناها عن القرشيين ما جبلت عليه نفوس هولاء القوم من الحسد وما كمن فى قلوبهم من الحقد والبغضاء ومافطروا عليه من الكيد والدس والانانيه التى لا مثيل لها فلا ندهش بعد ذلك اذا رأينا القرشيين أنفسهم يتهالكون على الخلافة عقب وفاة النبى . كل امرىء يريدها لنفسه وكل فرد يرغب فى الاستئثار بها دون سواه فنكل بعضهم بالبعض الاخر أفظع تنكيل ومثل قويهم بضعيفهم أشنع تمثيل وسيرى القارىء ذلك مفصلا فى غير هذا المكان

علي ابن ابي طالب

لما قتل عمر بن الخطاب انتخب عثمان ابن عفان للجلوس في كرسي الخلافة . وكان انتخاب هذا الرجل الغر مصيبة كبرى على المسلمين . فانه ما كاد يتسنم عرش الخلافة حتى اعتزل اصحابه وأقصاهم عن مجلسه وأعرض عن مشورتهم ولم يصغ لنصائحهم بل جمع حوله أقاربه من بني أمية يهتدي بهديهم ويسير على هواهم ويعمل برأيهم

بدأ أعماله المشؤومة بعزل جميع الولاة الذين عينهم عمر وبعث الى الامصار بأقاربه وذوي رحمه . وهؤلاء استبدوا بالامر ارتكانا على قرابتهم للخليفة فضج العالم الاسلامي من جورهم وعسفهم وذهبت الوفود الى مكة تلتمس من عثمان عزل هؤلاء الحكام . ولكن عثمانا لم ينظر في هذه الشكوى ولم يعطها العناية الكافية بل وعدهم بالنظر وأخلف الوعد وكذب على الناس بوعده إياهم بالنظر في شكواهم .

الناس يتألمون ويشكون من الضرائب الفادحة التي فرضها الحكام عليهم ، يستصرخون ويستغيثون وعثمان نائم في بيته لا يرق ولا يرحم ولا يلين ولا يشفق ولا يجد من دينه وازعا ولا من ضميره مؤنبا ولا من شعوره مؤاخذا . ولما ضاق الناس ذرعا بهذا الرجل الأناني أجمعوا على قتله فأفلحوا في ذلك وذهب عثمان جزاء سياسته الخرقاء

بعد مقتل عثمان اجتمع فريق من المسلمين وبايعوا عليا . ولكن لذا كان حريصا على أن يبايعه طلحة ابن عبد الله والزبير ابن العوام أنهما كانا من أجدر الناس بعده لهذا المنصب العظيم فتلكأ طلحة فهدده الاشتر النخعي وهو من أنصار علي - بضرب عنقه فأذعن خوفا وبايع بالرغم منه

* * *

لم يكن علي ابن أبي طالب بالرجل الذي يصلح لان يكون خليفة على المسلمين وذلك لأسباب كثيرة منها أنه كان مكروها من كثير من الشخصيات البارزة . امتنع عن مبايعته طلحه ابن عبد الله المتقدم ذكره والزبير ابن العوام وسعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وعائشه زوجة النبي . وتخلف عن البيعة من الانصار حسان ابن ثابت وكعب ابن مالك ومسلمة ابن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد ابن مسلمة والنعمان ابن بشير وزيد ابن ثابت ورافع ابن خديج وفضالة ابن عبيد وكعب ابن عمرة وكان هؤلاء يميلون الى عثمان ابن عفان لما كان يسبغه عليهم من أموال .

وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليا نذكر منهم قدامة ابن مظعون وعبد الله ابن سلام والمغيرة ابن شعبة .

فنستنتج من هـذا أن عليا إدعى لنفسه الخلافـة وهو كاذب فى دعواه . وأسرع إلى صعود المنبر كعادة من سبقه من الخلفاء وألقى فى الناس خطبة البيعة مع أن الذين بايعوه هم رهط قليل ممن لا قيمة لهم ولا أهمية .

***

ثم إن عليا افتتح أعماله بسياسة خرقاء تدل على جهل وقصر نظر . لقد بدأ بعزل الولاة الذين عينهم عثمان على الأمصار قبل أن تصل إليه البيعة . فكان هذا من أكبر العوامل التى أدت إلى فشله . ولقد نصحه بعض المخلصين له وحذره من عاقبة هذا العمل ولكن عليا أبى واستكبر وأصر على رأيه وأمعن فى العناد واستبد بالأمر غاية الاستبداد ولم يصغ لنصائح أصحابه الأقربين فكانت النتيجة وبالا عليه وعلى أبنائه من بعده

***

كان على ابن ابى طالب ضعيفا فى ميدان السياسة ضعفا تاما . فلقد كان الرأى العام عنه منصرفا فى العراق وفى مصر . ولم يكن له بالشام من الأنصار شىء يذكر ثم إن الرجل لا يعرف الخداع ولا المكر ولا الدهاء ولا غيره من الصفات التى يجب أن تتوفر فى كل سياسى يريد أن يظفر بأمنيته ويصل إلى غايته من أقرب طريق . وكان من نتيجة هذا

الضعف أن قتل فى حربه مع معاوية خلق كثير من خيرة رجال المسلمين

***

ثم إن أصحاب على الذين حاربوا معه لم يكونوا على رأى واحد ولم يكونوا على درجة من الاخلاص والحماس له بقدر ما كان عليه أهل الشام لمعاوية . فرأيناهم يمتنعون عن مواصلة القتال بعد أن كانوا على وشك القبض على معاوية وحاشيته ويخدعون بهذه الحيلة التى دبرها لهم عمرو بن العاص وهى رفع المصاحف على أسنة الرماح . ثم خرج عليه فريق آخر وهم المعروفون بالخوارج ، وحاربوه وقاتلوه قتالا شديدا . وأخيرا تثاقل عليه بقية جنده وأصدقائه فلم يطاوعوه فيما أراد رغم الخطب الكثيرة التى ألقاها عليهم وبقى كذلك حتى قتل سنة ٤٠ هـ . قتله ابن ملجم

***

ولم تكن لعلى ابن ابى طالب هيبة القائد ولم يكن مطاعا من جنده. وها نحن نرى الرجل يدعو جنوده إلى مواصلة القتال فى موقعة صفين فيمتنعون عن ذلك ولا يلتفتون إلى صيحته ولا يستجيبون إلى ندائه

***

ومما قلل من شأن خلافة على أنها قامت على أيدى رجال ثوريين لا يميلون الى النظام ولا يرغبون فى الطاعة فكانوا يرون لهم فضلا عليه . ولقد هددوه بالقتل عندما رفض التحكيم ثم بدا لجماعة أخرى أن هذا

التحكيم كفر فانصرفوا عنه وخرجوا عليه وقاتلوه .

ثم لما دعاهم لمقاتلة معاوية تقاعسوا وتكاسلوا وأظهروا الجمود ثم إن أصحابه كانوا يضيقون عليه حتى فى الرجل الذى اختاره فى التحكيم فأنهم أرغموه على اختيار أبي موسى الأشعرى وكان هذا على درجة كبيرة من السذاجة والتغفل . ومن خطبه التى تنم على الغيظ الشديد والحزن العميق والسخط البالغ حده على أنصاره قوله « ياأشباه الرجال ولا رجال ويأطغام الاحلام ويأعقول ربات الحجال . والله لقد أفسدتم على رأيي بالعصيان ولقد ملأتم جوفى غيظا حتى قالت قريش ان ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لارأى له فى الحرب »

* * *

كان على ابن أبى طالب يرى أنه أحق بالخلافة من غيره لأنه ابن عم النبى . لذلك طالب بهذا الحق المزعوم منذ الساعة الأولى . لقد التقى العباس ابن عبد المطلب بعلى ابن أبي طالب فقال له « أبسط يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ويبايعك أهل بيتك فأن هذا الأمر إذا كان لم يقال « اذا وقع تعذر تغييره » فقال على (ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟؟ .

ثم إنه لما بويع أبو بكر امتنع على عن المبايعة لانه كما قدمنا كان يريد أن يظفر بها فقال له أبو عبيدة ابن الجراح « ياابن عم . إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم

بالأمور ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا فصل لأبي بكر هـذا الأمر . فقال على « الله الله يامعشر المهاجرين. لاتخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم وتدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه فوالله يامعشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت » ثم ما كان منه إلا أن حمل فاطمة بنت رسول الله وهى زوجته على دابة وأخذ يطوف بها فى مجالس الأنصار تسألهم النصرة فـكانوا يقولون هذا يابنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل .)

إن ادعاء على ابن أبي طالب هذا لايستند الى شيء من الحق فما كان محمد ماكا ولا امبراطورا حتى يرثه أقرب الناس اليه إنما كان نبيا والنبوة لاتورث . ولم يكن له إلا سلطان روحى على العرب ذهب بذهاب الرجل . وعلى ذلك فقول على ابن أبي طالب (لاتخرجوا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم) إن هو إلا مغالطة فى مغالطة .

ويجب ألا يغرب على الذهن أن قرابة الانسان من النبي شيء وصلاحيته للحكم شيء آخر وربما يكون أحد الناس قريبا للنبي ولكنه لايملك من المواهب مايجعله سياسيا فذا يفيد المجموع ببعد نظره وذكائه . أفنلزم الناس على انتخاب من لايفيدهم بدعوى هذه القرابة ضاربين صفحا عن الاكفاء وذوى المواهب ؟؟

• • •

أما وقد بحثنا عن حق على ابن أبي طالب فى الخلافة وعن مبلغ قوة هذا الحق وفندنا آراء على تفنيدا لايدع مجالا للشك أصبحنا فى غنى عن الرد على الشريف الرضي فيما كان يدعيه لجده من حقوق هضمت واعتدى عليها اعتداء لاتقره العدالة . قال الشريف

ردوا تراث محمد ردوا ليس القضيب لكم ولا البرد
هل عرفت فيكم كفاطمة أم هل لكم كمحمد جد

نعم . أصبحنا فى غنى عن الرد على هذا القول بعد الذى قدمناه وعلى غيره مما يراه المطالع لشعر الشريف منبثا بغير حساب .

• • •

ولما قتل على تولى بعده ابنه الحسن ولكن هذا تنازل عن الخلافة لمعاوية ثم مالبث أن مات فخلفه أخوه الحسين ثم قامت الحرب بينه وبين يزيد ابن معاوية . وكان الحسين كابيه ضعيفا فى ميدان السياسة انخدع بأقوال أهل العراق ووعودهم ناسيا غدرهم بوالده من قبل فخرج من مكة قاصدا العراق فى رهط قليل من أصحابه فبلغ خبر ذلك إلى والى بنى امية على العراق فسار الى لقائه فى كتيبة من الجند ودار القتال بين الفريقين فقتل الحسين واستشهد جميع من معه بعد أن ذاقوا العذاب الأليم . ولم ينج من القتل الا النساء وطفل صغير هو زين العابدين واعتدى الجند على النساء اعتداء شنيعا وداسوا جثة الحسين

بأقدام الخيل وتركوها فى الصحراء تأكلها الغربان وحملوا رأسه الى الشام ووضعوها بين يدى يزيد الذى أخذ يضربها بقضيب من حديد كان فى يده

• • •

كان لمقتل الحسين بكربلا وقع سيء فى نفوس فريق من المسلمين فحقدوا على بنى أمية وتشيعوا لعلى وأولاده فعرفوا بالشيعة وقد انقسم هؤلاء الشيعة الى فرق كثيرة ذكرنا شيئا منها عند الحديث عن الدين . ومن بين هذه الفرق الاثنا عشرية والى هذه الفرقة كان ينتمى الشريف الرضى

مشكلة الخلافة

لا أكون مسرفا ولا مغاليا إذا قلت إن حالة الشرق قبل الاسلام كانت أحسن بكثير منها بعد ظهوره .

ربما بدا هذا القول غريبا عند الذين وضع التعصب الدينى على أعينهم غشاوة من فوقها غشاوة وفى آذانهم وقرا . نعم ، ربما بدا هذا القول غريبا لهم ولأمثالهم ممن ينقادون خانعين لأحكام الدين من غير تفكير فى البحث الرشيد ولا إلمام بالموضوع مع التحقيق وما إلى ذلك من الدرس العميق الذى يتطلب الأحاطة بكل ناحية والنظر إلى مايستتر خلف ظواهر الأشياء نظرا مجردا عن الأغراض والعواطف خالصا لوجه الحقيقة ولوجه الحقيقة وحدها .

* * *

ماجاهد ابو بكر حبا فى الأسلام وحده وما حارب على فى سبيل الأسلام وحده وماضحى عمر فى الذود عن الاسلام وحده وما كافح عثمان هياما بالاسلام وحده . انما كان لكل واحد من هؤلاء مطامع شخصية تستتر خلف هذا الجهاد المصطنع وهذا الكفاح المتكلف وهذا الانتصار الزائف وهذا الاخلاص المبنى على غير أساس . نعم ، كانت تستتر خلف هذا الجهاد ووراء هذا الكفاح الأنانية والأثرة وحب الذات

والرغبة فى السلطان . فما كاد النبي ينتقل من هذه الدار حتى تمزق ثوب الرياء وانكشف الستار وظهرت حقيقة هؤلاء القوم الطامعين فى الدنيا ومافيها الراغبين فى التسلط والحكم . واشتد الجدال بين الأنصار والمهاجرين على الخلافة . فالأولون يدعون بأنهم آووا النبى ونصروه وعززوه وآزروه وعلى ذلك فيجب ان تكون الخلافة لهم ولهم وحدهم دون سواهم كثمن لهذا الانتصار .

والمهاجرون يذكرون أنهم أول من أسلم . وهم قبل كل شيء آل النبى . حموه وهو بين الأعداء بمكة واحتملوا فى سبيل الدين كل عذاب وكل اضطهاد وعلى ذلك فهم أولى الناس بالخلافة .

وكادت الحرب أن تقع بين الفريقين لولا أنهم لم يكونوا على استعداد للقتال لما خاضوا من المعارك الكثيرة التى قامت فى أيام النبى . فآثروا السلام ومالوا اليه مؤقتا . وأجمع القوم على مبايعة أبى بكر فتم ذلك وأصبح هذا خليفة للمسلمين .

وهنا وقف على ابن ابي طالب غضبان أسفا . أجل ، انه يريد الخلافة لنفسه دون سواه لأنه من آل البيت ولأنه ابن عم الرسول . وقد تكلمنا عن محاولة على ابن ابي طالب فى الحصول على هذا المنصب فى المقال السابق فلا داعى للتكرار الآن .

وما كان العرب براضين عن حكومة ابى بكر وفى ذلك يقول الشاعر

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيالعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكر اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

أجل ، لقد شقت قبائل العرب عصا الطاعة وجاهرت بالعصيان إلا أن أبا بكر تمكن من إخضاعها بحد السيف . ثم مالبث أن وجه أنظار العرب نحو الغزو والاستعمار .

***

واذا كان لابد من قول الحق فأننا نصرح بأن الخلافة كانت ولاتزال المصيبة العظمى والبلية الكبرى التي جلبت للشرق والشرقيين كل صنوف الشقاء وأنواع البؤس . والتاريخ أكبر شاهد على صحة مانقول . فما كاد الخليفة الثالث يقتل جزاء سياسته الخرقاء حتى انقسم المسلمون إلى قسمين قسم يؤيد عليا وقسم يؤيد معاوية : واشتد القتال بين الفريقين وطالت الحرب فهلك من المسلمين خلق كثير . ثم أنه لما تولى يزيد ابن معاوية سير جيوشه إلى المدينة فدخلتها وفتكت بمن فيها فتكا ذريعا . ثم سارت هذه الجيوش إلى مكة فحاصرتها حصارا شديدا وضربت الكعبة بالمجانيق فتصدعت جدرانها واحترقت ثياب الكعبة كما احترق الضريح النبوى . ويرى الجنود النيران مشتعلة فيهللون وينشدون

خطارة مثل الفنيق المزبد نرمى بها أعواد هذا المسجد

ودخل الجيش مكة واعمل السيف فى رقاب أهلها فقتل الرجال واعتدى على أعراض النساء اعتداء شنيعا . كل هذا ويزيد آمن فى قصره بين الكاس والطاس يرتع فى النعيم ويتمتع بما لذ وطاب .

وحدث فى أيام عبد الملك ابن مروان ماحدث فى عهد يزيد . فقد ولى الحجاج على مكة والمدينة فذهب هـذا ونكل بمن فيها تنـكيلا شديدا وبطش بهم بطشا فظيعا واعتدى على المسلمين بالقتل والسجر

• • •

ثم جاء دور بنى العباس . وأقبل عهـد السفاح وماسمى كذلك إلا لكثرة ما استباح من دماء المسلمين وما سفك من دمـاء المسلمين وم هدر من دماء المسلمين .

اعتدى العباسيون على الأمويين وأقارب الأمويين وأنصار الأمويين اعتداء لم يشهد التاريخ له مثيلا . ومن أمثلة ذلك أن السفاح دعى فريق من بنى أمية وأظهر لهم الصفح والعفو . ودعاهم إلى مائدتـه ليتناولو الطعام وبينما هم كذلك إذ دخل أحد الشعراء فأنشد هذين البيتين

لا يغرنك ما ترى من أناس أن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

وسرعان ماأمر السفاح عبيده فاعملو السيوف فى رقاب الامويين وكانو يزيدون على التسعين . وأشار على الخدم ففرشوا الابسطة الفـاخر فوق هؤلاء القتلى ومنهم من هو فى حالة الاحتضار وجلس السفاح هو وحاشيته على هذه الجثث يأكل وهو مطمئن البال مرتاح الضمير وأنين القتلى لا يزال مرتفعا ومسموعا . ثم أمر بنبش قبور بنى أمية فاستخرجت جثة معاوية وفتح قبر ابنه يزيد وكذلك قبر عبد الملك ابن مروان . ثم

استخرجوا جثة هشام ابن عبد الملك وأحرقوا هذه الجثث . وتتبع العباسيون الامويين حتى قضوا عليهم قضاءا تاما ومن ذلك أن السفاح أمر عامله على المدينة بقتل من فيها من الامويين فما كان من الوالى إلا أن قبض عليهم وأمر بذبحهم فذبحوا وجرت جثثهم فى الشوارع والطرقات ثم تركوا على قارعة احدى الطرق فأكلتهم الكلاب .

* * *

هذه صورة بشعة تمثل لنا ما كان عليه المسلمون من وحشية وهمجية نجزم بأننا لانجد لها مثيلا فى تاريخ العصر الجاهلى ولو أردنا أن نسرد من أمثال هذه الصورة لضاق بنا هذا الكتاب فنكتفى بالوقوف عند هذا الحد

***

وقد كان من الشائع بادىء ذى بدىء أن الخلافة شورى بين المسلمين وأن المسلمين وحدهم هم الذين ينتخبون الخليفة . وفى ذلك يقول الشاعر مخاطبا عمر ابن الخطاب

أنت الامام الذى من بعد صاحبه ... القى اليك مقاليد النهى للبشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ولكن لما تولى معاوية أصبحت الخلافة وراثية يرثها الابن الأكبر فالابن الأكبر . وبظلت الشورى وأصبحت أسمية فقط . ونحن نرى ن معاوية لما أراد أن يأخذ البيعة ليزيد ذهب الى المسجد . وهناك

وقف أحد الدعاة فقال : هذا أمير المؤمنين وأشار بيده الى معاوية فأن هلك فهذا وأشار بيده الى يزيد فمن أبى فهذا وأشار بيده الى سيفه

• • •

ولقد زاد اعتقاد العرب فى الخليفة على مر الأيام . فرأوا أنه يستمد أمره من الله وأن طاعته من طاعة الله وفى ذلك يقول الشاعر

أتى الخلافة أو كانت له قدرا كما أتي ربه موسى على قدر

وكان لشيوع هـذه الآراء وانتشارها أثر عظيم فى نفوس الشعراء الذين خلعوا على الخلفاء صفات الآلهـة التى تسير الـكون كما تشتهى وتحب . قال ابن هانيء الأندلسى يمدح المعز لدين الله الخليفة الفاطمى

ماشئت لاماشاءت الأقـدار فاحـكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمـد وكأنمـا أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشرنا به فى كتبها الأحبار والأخيار

• • •

ذكرنا أن الخلافة كانت شؤما على الشرق والشرقيـين وذلك لأن الخلفاء استغلوا الدين فى كل شىء يعود عليهم بالخير والمنفعة . فباسم الدين استبدوا بالشعوب وباسم الدين أذلوا الشعوب وباسم الدين ضيقوا على الشعوب وحرموها كل حرية وكل استقلال .

ولقد أحسن مصطفى كمال رب تركيا الحديثة بقضائه على هذا الأثر البالى والظل الدارس الذى لامحل لوجوده فى عصر النور والعرفان

***

هـذه كلمة قدمناها عن الخلافة التي كانت منتهى آمال الشريف الرضي وأقصى أمانيه . صبت اليها نفسه وسال عليها لعابه فعاش ينشدها ويمني النفس بها ويعلل الخاطر بقرب الظفر بها . قال .

وأظن نفسي سوف تحملني على الأمر الأشد
حتى أرى متملكا شرق العلى والغرب وحدي

مولد الشريف الرضى

ولد الشريف الرضى سنة ٣٦١ هـ ببغداد فى بيت والده . وكان ذلك فى عصر المطيع لله الخليفة العباسى . وسمى محمدا وكنى أبا الحسن . أما ألقابه فكثيرة أشهرها مالقبه به بهاء الدولة وهو الرضى ذوالحسبين. ويعرف بالشريف الموسوى نسبة الى أحد أجداده وهو موسى الرضا ابن جعفر الصادق .

ومما هو جدير بالذكر أن العرب أخذوا يدخلون الالقاب الفخمة على أسمائهم منذ قيام الدولة العباسية . ومثال ذلك السفاح والمنصور والرشيد والرضى . وهذه عادة فارسية اقتبسها العرب فيما اقتبسوه من الفرس

طفولته

إنه وإن كانت كتب التاريخ لاتسعفنا بكثير أو قليل عن طفولة الشريف الرضى إلا أننا نستطيع أن نؤكد للقارىء أن صاحبنا قضى أيام طفولته كما يقضيها أبناء الأغنياء والموسرين . فقد كان والده كما ذكرنا سفيرا بين الخلفاء من بنى العباس والملوك من بنى بويه . ورسول سلام بين آل بويه أنفسهم . ومثل هذا الرجل لابد أن تتوفر لديه أسباب الحياة ومظاهر الترف والنعيم . لذلك لانعدو الصواب اذا قلنا إن الشريف ولد فى ساحة عز ورخاء وعاش أيامه الأولى فى سعادة وهناءة

ويلاحظ المرء أن الشريف الرضى كان راغبا عن الشهوات ، مبتعدا عن اللذات ، طموحا إلى المعالى . وهذا يدلنا على سمو الوسط الذى درج فيه ورقى البيئة التى نشأ بها وتغذى بلبانها فى الأعوام الأولى من عمره . قال وهو فى العاشرة من سنى حياته

المجد يعلم أن المجد من أربي ... وإن تماديت فى غي وفى لعب
إنى لمن معشر إن جمعوا لعلى ... تفرقوا عن نبى أو وصى نبى
إذا هممت ففتش عن شباهممى ... تجده فى مهجات الأنجم الشهب
وإن عزمت فعزمى يستحيل قذى ... تدمى مسالكه فى أعين النوب

نقول حسب القارىء أن يمر على هذه الأبيات التى نظمها صاحبنا وهو بعد فى العاشرة من عمره ليعلم مقدار تأثير البيئة التى نبت فيها الرجل على نفسه وعلى عقليته وعلى تفكيره

ثقافته وتهذيبه

للمسلمين طريقة خاصة مازالت باقية حتى اليوم فى تثقيف أبنائهم . فهم يبدأون بتلقينهم القرآن . يحفظونهم إياه عن ظاهر قلب . فالغلمان مكلفون باستظهار مايقرر عليهم كل صباح . وويل لمن يذهب الى المكتب دون أن يحفظ ماقرر عليه . هنالك ينهال الفقيه عليه بالسوط دون رحمة أو شفقة .

وجريا وراء هذه العادة بدأ الشريف الرضى ثقافته بان قرأ القرآن على أبى اسحاق ابراهيم الطبرى وهو حدث . ثم أعاد حفظه بعد أن تخطى هذه السن .

وكانت أم الشريف تعنى بشؤون ابنيها عناية فائقة وتهتم بتثقيفهما وتهذيبهما منذ حداثتهما . فقد روى ابن أبي الحديدشارح نهج البلاغة أنها دخلت يوما المسجد الى أبي عبد الله محمد ابن النعمان الفقيه الامامى وحولها جواريها وبين يديها أبناها الرضى والمرتضى فقام اليها وسلم فقالت أيها الشيخ هذا ولداى قد أحضرتهما اليك لتعلمهما الفقه فتولى تعليمهما . وذكر ابن جنى ان الشريف الرضى احضر الى ابن السيرافى النحوى المشهور فتلقى عنه علم النحو

وكانت بين صاحبنا وبين ابن جنى صداقة متينة فقرأ عليه طويلا واستفاد منه كثيرا فى علم النحو والبلاغة والادب ونقد الشعر وتحليله

ولما مات ابن جنى صلى عليه الشريف وشهد دفنه ورثاه بقصيدة يجدها الباحث مثبتة فى ديوانه

ونستنتج من دراستنا لشعره أنه درس تاريخ عظماء المسلمين ووقف على كثير من اخبارهم وبخاصة زعماء الطالبيين أمثال الحسن والحسين كما نستنتج أن صاحبنا قد درس أدب من تقدمه بعناية فائقة وحفظ كثيرا من شعر من سبقه من الشعراء فنسج على منوالهم فيما نظمه

غير أن الشريف الرضى لم يعن بدراسة الفلسفة مع انتشارها فى عصره انتشارا كبيرا وظهور كثير من عظماء الفلاسفة أمثال الفارابى وابن سينا والمعرى وذيوعها على السنة الكتاب والشعراء امثال المعرى والمتنبي

بعض أساتذته

- ابن جنى -

هو ابو الفتح عثمان بن جنى الموصلى النحوى المشهور . كان من أئمة اللغة . أخذ الادب عن الشيخ ابى على الفارسى ثم زاول التدريس بالموصل ورحل الى بغداد . وقد وصفه الثعالبي بقوله « هو القطب فى لسان العرب واليه انتهت الرياسة فى الادب . وصحب ابا الطيب دهرا طويلا شرح شعره ونبه على معانيه واعرابه . »

كان أبوه جنى مملوكا روميا لسليمان بن فهد بن أحمد الازدى الموصلى ومن مؤلفاته .

١ ـ كتاب الخصائص وسر الصناعة
٢ ـ المذكر والمؤنث والمقصور والممدود
٣ ـ التمام فى شرح شعر الهزليين
٤ ـ مختصر فى العروض
٥ ـ مختصر فى القوافى
٦ ـ شرح ديوان المتنبي

وكان ابن جنى يقول الشعر . وقد مدحه الشريف الرضى بقصيدة مطلعها

أراقب من طيف الحبيب وصالا

ويأبى خيال أن يزور خيالا

توفى سنة ٣٩٢ هـ ببغداد وصلى عليه الشريف الرضى كما أسلفنا وحضر دفنه ورثاه بقصيدة مطلعها

ألا يالقومى للخطوب الطوارق
وللعظم يرمى كل يوم بعارق
وللدهر يعرى جانبي من اقاربى
ويقطع مابينى وبين الاصادق

* * *

— ابن السيرافى —

هو ابو محمد يوسف ابن أبى سعيد السيرافى . اصله من سيراف وهى مدينة ببلاد فارس خرج منها جماعة من العلماء والادباء .

كان عالما فى النحو واللغة . باشر التدريس ببغداد وعليه تلقى الشريف الرضى علم النحو . وللسيرافى مؤلفات قيمة فى علم النحو واللغة والاخبار توفي سنة ٣٨٥ هـ وعمره أكثر من خمسين عاما .

وقد رثاه صاحبنا بقصيدة نذكر منها

يايوسف ابن ابى سعيد دعوة
أوحى اليك بها ضمير موجع
إن الفجائع بالرجال كثيرة

ولقل من يـرعـى ومن يتفجع
لما رأيت النـاس بعـدك نـكبوا
سـنن الحفـاظ فغـادر ومضيع
قـرطست فى غـرض الوفاء بقولة
لاكون بعـدك حافظا ماضيعوا

تصرفه وعمله

ولى الشريف نقابة الطالبيين وهى رياسة آل البيت العلوى والحكم فيهم أجمعين مستقلين عن طبقات الامة الاسلامية .

كان نقيبا فى بغداد أولا . ثم جعله بنو بويه نقيبا للطالبيين فى بلاد فارس بأجمعها . وكان يضم الى ذلك العمل النظر فى المظالم والحج بالناس

وهذه الاعمال كان يتولاها والده الطاهر ثم تنازل عنها لابنه الرضى مع أنه كان أصغر من أخيه المرتضى لان هذا قد شغل بالعلم عن الحكم ولان الرضى كان يمنى نفسه بالخلافة . وكان والده يخشى ان ينقم عليه الخلفاء العباسيون علو همته فيسند اليه هذه الاعمال ليشغله بها عن التفكير فى أمر الخلافة وليسكن خاطره الثائر ويخفف من حدته وغليانه قال الشريف

ولى النقابة خال أمى قبل ثم أبى وجدى
ووليتها طفلا فهل مجد يعد مثل مجدى

ولكنه برم بها فردها إلى والده الذى توفى سنة ٤٠٠ هـ فاضطر صاحبنا الى القيام بأعبائها وبقى كذلك حتى مات سنة ٤٠٦ هـ فتولاها من بعده أخوه المرتضى .

وقد اتخذ الشريف فى أيام حياته دارا اسماها « دار العلم » وكان يجتمع بهذه الدار طلبة العلم الملازمون له . وقد عين لهم جميع ما يحتاجون

اليه . فكان بهذة الدار خزانة كبيرة لها مفاتيح كثيرة لكل طالب مفتاح خاص يفتح به الخزانة فى اى وقت شاء ويأخذ ما يريد دون حسيب أو رقيب

ثم إن صاحبنا كان يصرف كثيرا من وقته فى وضع الكتب وتاليف الرسائل ونظم القصائد الطويلة . فقد ترك أكثر من عشرة مؤلفات من بينها ديوان شعره الضخم وكتاب نهج البلاغة .

مذهبه

كان لمقتل على بن أبى طالب وابنه الحسين من بعده أثر سيئ فى نفس فريق من المسلمين فتشيعوا لآل على وهؤلاء هم الشيعة . ومن رأى هـذا الفريق أن الخلافة فى بيت على . وقد اجتهد الشيعة فى اختلاق الاحاديث التى تؤيد رأيهم وتعضد مذهبهم . وكانوا يذهبون الى أن الخلافة ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة إنما هى قضية أصولية وهذا مـذهب سياسى كما ترى لأنه يتعلق بنظام الحـكم .

وقد انقسم الشيعة من بادئ الامر الى فريقين .

١ — فرقة رأت أن الخلافة فى أولاد على مطلقا فجعلت بعد الحسين أخاه محمداً بن الحنفية فلما مات هذا انقسم أتباعه الى حزبين

(ا) حزب اعتقد بعدم وفاته وقال بانه موجود فى جبل من الجبال وبجواره بئر من عسل وآخر من ماء ومعه اسد ونمر يحرسـانه . وكان هذا الحزب يدين برجعة محمد بن الحنفية وهؤلاء هم الشيعة الغالية .

(ب) وحزب آمن بوفاته فولى ابنه أبا هاشم بن محمد وهو الذى توفى بالحميمة من بلاد الشام عند أبناء عمه العباسيين ونزل لهم عن الخلافة بعد أن أوصاهم بالشيعة خيراً .

وهذان الحزبان ينضمان تحت اسم واحد وهو الشيعة الـكيسانية .

والذى وضع مذهب الشيعة الـكيسانية هو المختار بن أبى عبيد الثقفى

الذى قام بثأر الحسين بن على وقتل اكثر الذى اشتركوا فى قتله بكربلاء قيل انه أخذ مذهبه من مولى لعلى بن أبى طالب اسمه كيسان وقيل كيسان هذا لقبه .

٢ — ورأت فرقة أخرى أن الخلافة فى أولاد على من فاطمة وأن الامام معين بالنص . وقد انقسم أفراد هذه الفرقة الى قسمين

(ا) فالقسم الاول كان يرى أن الامام منصوص عليه بالوصف . وأن الخلافة حق لكل فاطمى موصوف بالعلم والشجاعة والكرم والتقوى وهؤلاء هم الزيدية الذين أسسوا لهم دولة علوية فى طبرستان ومنهم أجداد الشريف الرضى لأمه . والزيدية باقية باليمن حتى العصر الحاضر .

« ب » أما القسم الثانى فكان يرى أن الامام منصوص عليه بالاسم ويذهبون الى ان الخلافة فى اولاد الحسين فيجعلون بعده ابنه عليا زين العابدين ثم أبناه من بعده . وهؤلاء هم الامامية الاثنا عشرية . والى هذا الحزب كان ينتمى صاحبنا بل أنه لأحد زعمائه الذين يشار اليهم بالبنان .

ومن معتقدات هذا الحزب أن الامام متصف بكل وصف كان يتصف به النبى من كونه أمين الله وهادى الخلق ووارث الارض وشفيع الناس . فهو مشارك للنبى فى كل فضيلة الا فى الرسالة . وفى ذلك يقول الشاعر

هذا امين الله بين عباده وبلاده ان عدت الامنياء

هذا الشفيع لامة يأتى بها وجدوده لجدودها شفعاء

ومن معتقداته ان الامام حائز لشرف العصمة مثل النبي لايصدر منه خطأ ولا تبد ومنه زلة لانه ملهم من الله بأعظم درجات الالهام ومؤيد منه بأكبر حدود التأييد . وفى ذلك يقول الشاعر

مؤيد باختيار الله يصحبه وليس فيما أراه الله من خلل

حساده

عانى الشريف الرضى كثيرا من كيد حاسديه الذين ما كانوا يتركون فرصة تمر دون أن يدسوا للرجل ويوقعوا بينه وبين ملوك آل بويه والخلفاء العباسيين . ومن أمثلة ذلك أن صاحبنا كان يقرض قصائد المديح ويبعث بها الى من قيلت فيهم . وجريا وراء هذه العادة نظم الشريف قصيدة فى مدح بهاء الدولة وبعث إليه بها . فانتهز أعداؤه فرصة وجودهم لدى بهاء الدولة وأخبروه بأن الشريف اعتاد ان ينشد قصائده للخلفاء وانه تكبر عن إنشاد القصيدة التى قالها فى بهاء الدولة فبعث بها إليه . وبلغ ذلك الشريف الرضى فآلمه الالم كله فكتب الى بهاء الدولة بهذه الابيات

جنانى شجاع إن مدحت وإنما
لسانى إن سيم النشيد جبان
وما ضر قوالا أطاع جنانه
إذا خانه عند الملوك لسان
ورب حيى فى السلام وقلبه
وقاح اذا لف الجياد طعان
ورب وقاح الوجه يحمل كفه
أنامل لم يعرق بهن عنان
وفخر الفتى بالقول لا بنشيده

ويروى فـلان مرة وفـلان

وبلغ الشريف الرضى أن قوما اجتمعوا بدار أحد أصدقائه وتكلموا فى حقه بما لا يحب وأجروا ألسنتهم بشىء من القدح فبعث الى صديقه هذا بقصيدة نذكر منها

مارقع الواشون فى ولفقوا
قل لى فأما حاسد أو مشفق
فى كل يوم ظهر دارى مغـرب
لـكلامهم وجبين دارك مشرق
من كان يغتـاب الرجال وهم أن
يبلو الاصادق فالصديق المطرق
جار الزمان فـلا صديق يرتجى
للنائبـات ولا صديق يشفق
وطغى على فـكل رحب ضيـق
إن قلت فيه وكل حبل يخنق

نفسيته

ليس من العسير علينا أن نفهم نفسية الشريف الرضى إذا نحن ذهبنا نطالع ماحواه ديوانه قصيدة قصيدة . فشعر الرجل مرآة صادقة لما كانت عليه نفسيته من حب للطموح وعشق للمعالى وميل للرفعة والسمو ورغبة عن الهزل وترفع عن سفاسف الأمور . قال : ـ

لغير العلا منى القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت فى الحب ارغب

وقال

وأعرض عن كأس النديم كأنها
وميض غمام غائر المزن خلب
وقور فلا الألحان تأسر عزمتى
ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها
ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

* * *

كان الشريف الرضى ارستقراطيا بكل معنى الكلمة . يضم بين جوانحه نفسا عظيمة ترى أنها لا تقل عن أى مخلوق يعيش حولها . انظر

ما بيننـا يوم الفخـار تفاوت
أبدا كـلانـا فى المفـاخر معرق
الا الخـلافـه مـيزتـك قانى
أـا عـاطل منهـا وأنت مطـوق

وحـين يـقـول

لى مهجة لا أرى لها عوضا غير بلوع العلا ولا ثمنا

آماله وامانيه

الشريف الرضى من نسل على ابن ابى طالب وزعيم الشيعة الاثنا عشرية كما قدمنا . فهو يريد الخلافة لنفسه ويرغب فى ان يكون خليفة على المسلمين . لا يهدأ له بال ولا يسكن له خاطر ولا يحلو له عيش ولا تصفو له حياة الا اذا جلس على كرسى الخلافة

ولقد قرأ الشريف كثيرا من تاريخ أجداده ووقف على تفاصيل ماوقع على العلويين من ظلم واضطهاد ، لذلك كان همه الوحيد هو انتزاع الخلافة من أيدى العباسيين

• • •

ومما شجع الشريف الرضى على الاسترسال فى آماله مارآه من ضعف الخلافة العباسية ضعفا تاما وما شاهده من انحلالها وذهاب نفوذها وسلطانها . وقد بينا ذلك عند الكلام عن الحالة السياسية .

ومما شجعه كذلك أن آل بوية كانوا من غلاة الشيعة الذين يدينون بالولاء لآل على . ويحدثنا التاريخ ان الملوك البويهيين كانوا يحرضون النساء على الخروج وعمل المناحات والبكاء والعويل فى شوارع بغداد وطرقاتها فى مثل اليوم الذى قتل فيه الحسين أبن على من كل عام. وكان الشريف يرى ذلك بعينى رأسه فيقوى أمله ويزداد تعلقا بالخلافة وجلالها

وكان للشريف الرضى أنصار كثيرون منهم ابو اسحاق الصابىء الذى كان يزعم أن طالع صاحبنا يدل على أنه سيرقى حتما إلى هـذا المنصب الرفيع . وكانت تدور بينهما قصائد بهذا المعنى . ومثال ذلك قول ابى اسحاق الصابىء وقد بعث به إلى الشريف .

أبا حسن لى فى الرجـال فراسة
تعودت منها أن تقـول فتصدقا
وقد خبرتنى عنك أنك ماجد
سترقى مـن العلياء أبعـد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه
وقلت أطـال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها
إلى ان أرى إطلاقها لى مطلقا
فأن عشت أو أن متّ فاذكر بشارتى
وأوجب بها حقا عليك محققا
وكن لى فى الاولاد والاهل حافظا
إذا ما اطمأن الجنب فى موضع البقا

فأجابه الشريف بقصيدة نذكر منها

سننت لهذا الرمح غربا مذلقا
وأجريت فى ذا الهندوانى رونقا

وسومت ذا الطرف الجواد وانما
شرعت له نهجا نخب واعنقا
لئن برقت منى مخايل عارض
لعينيك يقضى ان يجود ويغدقا
فليس بساق قبل ربعك مربعا
وليس براق قبل جودك مرتقى

ثم ان ملوك آل بويه كانوا يمنونه بها ويعدونه بقرب صيرورتها إليه فلا عجب إن سيطر حلم الخلافة على الرجل ومالك عليه مشاعره وأصبح شبحها ماثلا أمام عينيه فى القومة والقعدة وفى المنام واليقظة وفى كل مكان يذهب اليه .

الخلافة . . الخلافة . . منصب الخلافة . . جلال الخلافة . . عظمة الخلافة . . مكانة الخلافة . هيبة الخلافة . . سلطان الخلافة . . جاه الخلافة . . هذا هو ما كان يردده الشريف الرضى آناء الليل وأطراف النهار . قال

أرى نفسى تتوق إلى النجوم
سأحملها على الخطر العظيم
ولى أمل كصدر الرمح ماض
سوى أن الليالى من خصومى
ومالى همـــة إلا المعـــالى
وذب الضيم عن نسب صميم

لماذا فشل ؟؟

ذكرنا عند الحديث عن الدين أن الناس فى عصر الشريف الرضى كانوا يتخذون العقيدة وسيلة لتحقيق المطامع ونيل المآرب . وبنو بويه كانوا من أئمة من يستترون وراء الدين للوصول إلى أمانيهم والظفر بحاجاتهم .

كانوا يشجعون العلويين ويتظاهرون بحب آل على وهم غير صادقين والبويهيون قوم من الفرس أتاح لهم ضعف الخلافة العباسية فرصة الوصول إلى مناصب الحكم فلم يهتموا إلا بسعادة أنفسهم ولم يعنوا إلا بمصالح أنفسهم ولم يعبأوا إلا بشئون أنفسهم . قامت فى الارض خلافة أم لم تقم ، ذهب الاسلام أم بقى . كل ذلك هين وحقير فى سبيل سعادتهم ورفاهيتهم .

ولقد رأينا فى الفصل الأول أن عز الدولة بختيار أحد هؤلاء الملوك يلهو ويلعب فى نواحى العراق بينما جيوش الروم تنزل بأهل الشام أشد أنواع العذاب وتأسر آلاف الفتيان والفتيات وترسلهم إلى جهات آسيا الصغرى حيث يحولون من الدين الاسلامى إلى الدين

المسيحى . ثم رأينا بختيار نفسه يرغم الخليفة المطيع على دفع أربعمائة ألف درهم ويأخذها وينفقها على ملذاته الخاصة . ورأينا بهاء الدولة يعوزه المال فيعمد الى الخليفة الطائع ويقبض عليه وينهب ما فى قصر الخلافة من ذهب وفضة وفراش وأثاث .

ومن ناحية أخرى رأينا عضد الدولة يقبض على والد الشريف الرضى وهو زعيم العلويين وعلى عم الشريف ويرسلهما إلى بلاد فارس حيث سجنا فى قلعة هناك بقيا فيها إلى أن مات عضد الدولة وخلفه ابنه شرف الدولة فأطلق سراحهما واصطحبهما معه حين قدم بغداد .

فلو كان البويهيون صادقين فيما يدعون من حب لآل على لما تأخروا فى نقل الخلافة من العباسيين إلى الطالبيين . أجل ! لقد كان فى مقدورهم ذلك ولكنهم كما ذكرنا كانوا ينظرون إلى مصلحة أنفسهم قبل كل شىء . ومصلحتهم كانت تقضى عليهم بابقاء الخلافة العباسية لأنهم يستطيعون الاستفادة من ضعف العباسيين بينما لو آل الأمر إلى العلويين لكانت الخلافة الجديدة قوية الجانب عزيزة المكان وربما يتعرض سلطان البويهيين للضياع .

ثم إن الشريف الرضى كان — فيما يظهر من شعره — يحلم باعادة

الامبراطورية العربية إلى ما كانت عليه أيام مجدها وعزها . وهو قبل كل شيء عربي النزعة شديد التعصب للعرب والعربية فلو ولي الخلافة لكان هذا ضربة قاضية على نفوذ الترك والديلم على السواء ولتقلص ظل البويهيين وأمثالهم ممن ظهروا على أثر الانحلال الذى أصاب جسم الامبراطورية الاسلامية . وفى هذا مايجعل بنى بويه يعملون للشريف الرضى ألف حساب

وغريب من صاحبنا أن ينتظر من البويهيين أن يعينوه على تولى الخلافة مع ماعرف من ميله الشديد إلى إعادة مجد الامبراطورية الاسلامية . وذلك لأن البويهيين لم يظهروا ولم تقم لهم قائمة إلا بفضل ما أصاب الامبراطورية العربية من وهن وضعف وتفكك وانحلال فكأنه طلب منهم أن ينتحروا فأبوا .

وظل الرجل يضاجع الاحلام ويعرض الآمال مشغوفا بها لا يملك إلا لسانه وهيهات أن ينفع اللسان وحده فى مثل هذه الظروف . إن الذين يطلبون السلطان ويرغبون فى الحكم لا أقل من أن يستعملوا السيف وسيلة للوصول إلى غايتهم وبلوغ مرامهم . وكان الشريف الرضى أبعد من أن يستخدم السيف .

لقد دنت أسرة الشريف الرضى من الحكم فيحدثنا التاريخ أن المأمون الخليفة العباسى بايع لعلى الرضا الجد الرابع لصاحبنا بولاية العهد . ولما سئل عن السر فى ذلك أجاب بأنه نظر الى من حوله من العباسيين والطالبيين فلم يجد اكفأ منه . ولكن عليا مات قبل المأمون وبذلك بعد الحكم عن أسرة الرجل .

* * *

ولا ننسى أن الخلفاء العباسيين كانوا يتقربون من البويهيين ويجتهدون فى توثيق العلاقات بينهم وبين آل بويه . ففى سنة ٣٦٤ هـ تزوج الخليفة الطائع شاه زمان بنت عضد الدولة على صداق قدره مائة ألف دينار وكتب العقد القاضى ابو بكر بن قريعه . وكان غرض عضد الدولة أن تلد بنته ولدا ذكرا يكون فيما بعد خليفة للمسلمين . ولما تولى القادر بالله تزوج بنت بهاء الدولة ودفع صداقا قدره مائة ألف دينار ولكنها ماتت قبل أن يدخل بها .

يأسه وحزنه

مرت السنون تباعا والشريف الرضى ينتظر تحقيق آماله والظفر بأمانيه والوصول الى غايته ولكن على غير جدوى . فأدرك الرجل أن البويهيين فى تشيعهم لآل علي غير صادقين . فشعر بالخيبة والفشل فيما كان يسعى اليه ويمنى نفسه به . واصطدم بالحقيقة المرة اصطداما بينا . فأخذ يبكى وينوح ويندب آماله الضائعة . انظر اليه حين يقول

وعدت يادهر شيئا بت أرقبه ... وما أرى منك إلا وعد عرقوب
وحاجة أتقاضاها وتمطلنى ... كأنها حاجة فى نفس يعقوب
لأتعبن على البيداء راحلة ... والليل بالريح خفاق الجلاليب

لقد إخذ اليأس يسرى فى الرجل وشاعت روح الحزن والكآبة فى شعره قال

بامقامى على الهوان وعندى ... مقول صارم وأنف حمى
وإباء يحاق بى عن الضيم ... كما راغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ... ذل غلام فى غمده المشرفى
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى اذا ضامنى البعيد القصى

لف عرقى بعرقه سـيد النا س جميعـا محمد وعلى
إن ذلى بذلك الجو عـز وأوامى بذلك النقـع رى
قد يزل العزيز مالم يشـمر لانطـلاق وقد يضام الأبى
إن شراً على اسـراع عزمى فى طـلاب العلا وحظى بطى
أرتضى بالأذى ولم يقف العز م قصـورا ولم تعز المطى
كالذى يخبط الظلام وقد أقـ ـر من خلفه النهـار المضى

فوصلت هذه الأبيات إلى يد الخليفة القادر بالله فغضب غضباً شديداً وعقد مجلساً وأحضر فيه أبا الطاهر الموسوى والد الشريف الرضى وابنه المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء وأبرز لهم أبيات الشريف السـالفة الذكر . وتقدم حاجب الخليفـة وقال للنقيب أبى احمد (والد الرضى) (ذل لولدك محمد «الشريف الرضى» أى هوان قد أقام عليه عندنا ؟؟ وأى ضيم لقى من جهتنا ؟ وأى ذل أصابه فى ملـكنا ؟ وما الذى يعمل معه صاحب مصر لو مضى اليه ؟ أكان يصنع معه أكثر من صنيعنا؟؟ ألم نوله النقابة ؟؟ ألم نوله المظالم ؟؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلناه أمير الحج ؟؟ فهل كان يحصـل له من صاحب مصر أكثر من هذا ؟؟ مانظنه كان يكون لو حصـل عنده إلا واحدا من

أفتاء الطالبيين؟؟)

فقال النقيب ابو احمد (أما هذا الشعر فما لم نسمعه منه ولا رأيناه بخطه ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه وعزاه اليه) فقال القادر (إن كان كذلك فليكتب الآن محضر بذلك يشهد فيه جميع من حضر المجلس منهم النقيب أبو احمد (والد الشريف وابنه المرتضى)

وكان هذا المحضر الذى هو بمثابة اعتراف أو إقرار يتضمن قدحا فى نسب العلويين حكام مصر فى ذلك الحين . وحمل الى الرضى ليوقع عليه . حمله إليه أبوه واخوه المرتضى . ولكن الشريف أمتنع عن التوقيع وقال إنه يخشى دعاة المصريين وأنكر الشعر واعترف كتابة بأنه ليس بشعره ولا يعرفه . وحاول أبوه أن يقنعه بكتابة أسمه تحت مايختص بالقدح فى الفاطميين ولكن الرجل أبى اباء شديداً وقال انه (يخاف دعاة الفاطميين وغيلتهم وأنهم معروفون بذلك) فقال أبوه (ياعجباه !! أتخاف ممن بينك وبينه ستمائة فرسخ ولا تخف ممن بينك وبينه مائة ذراع) وحلف ألا يكلمه وكذلك اخوه المرتضى. فعلا ذلك خوفا من القادر وتسكينا له . ولما انتهى الأمر إلى الخليفة القادر بالله سكت عن سوء أضمره له . وبعد ذلك بأيام صرفه عن النقابة وولاها

محمد ابن عمر

* * *

يرى القارىء مما تقدم أن الشريف الرضى أنكر الشعر وأقر بأنه ليس من قوله . فأن صح ذلك فأننا لانقبل هـذا الانكار لأن روح الرجل ظاهرة فى هذا الشعر بوضوح وجلاء . ولعمرى إن اسـتطاع صاحبنا أن ينكر قصيدته السالفة فما هو بمستطيـع أن ينكر قصيدته التى مطلعها

قعد الراضون بالذل فقم إنما المـاضى اذا هم عزم
مامقامى غير ممضى نيـة دائبـا أهدر كالفحل السـدم
أعرض الآمال مشـغوفا بها ثم أنساها إذا الخطب ألم
طال لبثى سـادرا فى غمة وقديما كنت فراج الهمم

وهى طويلة . ولو تأملها القارىء لوجد بينها وبين القصيدة السالفة شبها كبيراً .

صفاته واخلاقه

١ ـ عفته

كان صاحبنا عفيفاً شريف النفس عالى الهمة لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة حتى أنه رد صلات أبيه . وقد أجتهد بنو بويه فى حمله على قبول صلاتهم فلم يفلحوا فى ذلك . وقد روى ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة أن الشريف كان يتلقى علوم الدين عن أبن الطبرى الفقيه المالكى فسأله هذا يوما عن محل إقامته فأجاب الشريف بأنه يقيم فى دار أبيه فقال ابن الطبرى مثلك لايقيم بدار أبيه . قد نحلتك دارى بالكرخ المعروفة بدار البركة فامتنع الرضى عن قبولها وقال إنه لم يقبل من أبيه قط شيئاً ولكن ابن الطبرى ألح عليه حتى أن الشريف لم يجد مناصا من قبولها .

وحكى أن فخر الملك أحد وزراء آل بويه سمع ذات يوم أن الشريف قد ولد له غلام فارسل اليه بطبق فيه ألف دينار فرده وقال قد علم الوزير أنى لا آخذ من أحد شيئاً . ولكن فخر الملك ارسله ثانيا وقال

إنما هو للقوابل فرده الشريف وقال إننا أهل بيت ولا تدخل علينا قابلة غريبة انما يتولى ذلك الأمر العجائز من نسائنا وهن لا يأخذن على ذلك أجراً . فأعاده الوزير وقال ليفرقه الشريف على ملازميه من طلاب العلم فقال الشريف هاهم حضور فليأخذ كل أحد مايريد . فلم يقبل أحد من هؤلاء الطلاب أن يأخذ شيئا وإخيرا رجع المال الى الوزير .

٢ - مزاجه

وقد امتاز الشريف الرضى بمزاج سوداوى جعله يؤثر الجد على الهزل . ويبتعد عن مجالس اللهو وأمكنة الخلاعة والمجون . وكان يشرب الخمر ولكن بمقادير قليلة كما كان وقورا لايستخفه الطرب ولا تلعب الصهباء برأسه حين يشرب . قال

وقور فلا الالحان تأسر عزمتى ولاتمكر الصهباء بى حين أشرب
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها ولا انطق العوراء والقلب مغضب

٣ – قسوته

وكان الشريف الرضى ينسب الى الافراط فى عقاب الجانى من أهله وقد حدث أن امرأة علوية شكت اليه زوجها وكان يقامر بما يحصل عليه من عمله الذى يقوم به وهو فقير وذو عائلة وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت فاستحضره الشريف وأمر به فبطح وأشار بضربه فضرب مائة خشبة حتى كاد الرجل أن يموت لولا أن صاحت المرأة (وايتم أولادى ، كيف تكون حالنا إذا مات) فكلمها الشريف بكلام فظ وقال ظننت أنك تشكينه الى المعلم .

٤ – ذكاؤه

وكان صاحبنا شديد الذكاء . فذكر ابن خلكان أنه أحضر الى ابن السيرافى النحوى وهو لم يتجاوز العاشرة من سنى حياته وأنه جاس معه يوما فذاكره بشىء من الاعراب على عادة المعلمين فقال . إذا قلنا رأيت عمرو فما علامة النصب فى عمرو فقال الشريف بغض على فعجب ابن السيرافى والحاضرون من حدة خاطره .

ثم ان الرجل ابتدأ يقرض الشعر وهو فى العاشرة من عمره

٥ - وفاؤه

ويرى المطالع لشعر الشريف مايدل على ما امتاز به من وفاء لاصحابه وخلانه . ومن أمثلة ذلك أنه كانت بينه وبين الخليفة الطائع صداقة قوية ومحبة أكيدة فمدحه صاحبنا بقصائد كثيرة . ثم واساه بقصيدة يوم قبض عليه الديلم وواساه بقصيدة أخرى . ولما مات الطائع رثاه بقصيدة طويلة .

وكان كلما مر بقبر أبي اسحاق الصابيء وقف خاشعا وله فى كل وقفة قصيدة لو تدبرها القارىء لوجد فيها آيات الوفاء واضحة جلية ومن هذه القصائد تلك التى مطلعها

لولا يذم الركب عندك موقفى ... حييت قبرك يا أبا اسحاق

كيف اشتياقك مذ نأيت الى أخ ... قلق الضمير اليك بالأشواق

هل تذكر الزمن الانيق وعيشنا ... يحلو على متأمل ومذاق

وليالى الصبوات وهى قصائر ... خطف الوميض بعارض مبراق

اسراع الشيب اليه

يظهر أن مزاج الشريف الرضى السوداوى وحياته الخاصة التى كان يحياها والافكار الكثيرة التى استأثرت به وأقضت مضجعه وأرقته طويلا والامنية السامية التى كان يتطلع اليها . نقول يظهر أن كل هذه الاشياء قد تحالفت على الرجل وأثرت فيه فاشتعل رأسه شيبا وهو بعد فى العام الثالث والعشرين من عمره . قال

عجلت ياشيب على مفرقى وأى عذر لك أن تعجلا
فكيف أقدمت على عارض مااستغرق الشعر ولا استكملا
كنت أرى العشرين لى جنة من طارقات الشيب إن أقبلا
فالآن سيان ابن أم الصبا ومن تسدى العمر الأطولا
يازائرا ما جاء حتى مضى وعارضا ماجاد حتى انجلى
ليت بياضا جاءنى آخرا فدى بياضا كان لى أولا

- وفاته -

كان للحقيقة المرة التي اصطدم بها الشريف الرضى وخيبته وفشله فيما كان يسعى اليه أثر سيء في نفسه وفي صحته . فقد كان شديد الحقد ، كثير العبوس ، عظيم الحزن ، دائم الغليان فلا عجب ان أخذ جسمه يذبل شيئًا فشيئًا وشرعت قواه في التدهور والانحلال يوما بعد يوم . وسرعان ما اختطفته يد المنون وهو في شرخ الصبا لقد مات حزينا ساخطا دهره . ناقما على الدنيا وما فيها ومن فيها.

ادركته المنية في يوم الاحد سادس محرم سنة ٤٠٦ هـ ببغداد فجزع أخوه المرتضى جزعا شديداً حتى انه لم يشترك في الصلاة عليه ولم يستطع حضور دفنه . وصلى عليه الوزير فخر الملك وكثير من العظماء والنبلاء ودفن بداره بالكرخ ثم نقل الى مشهد الحسين بكربلا حيث دفن بجوار أبيه .

وكان صاحبنا عند وفاته قد بلغ العام الثالث والأربعين من عمره

مراثى الشعراء له

ولما مات الشريف الرضى رثاه أخوه المرتضى بقصيدة نذكر منها

يالله للرجال لفجعة جذمت يدى ... ووددت لو ذهبت على براسى
مازلت أصدر وردها حتى أتت ... فحسوتها فى بعض ما انا حاسى
ومطلتها زمنا فلما صممت ... لم يثنها مطلى وطول مكاسى
لله عمرك من قصير طاهر ... ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه تلميذه مهيار الديلمى بقصائد كثيرة جاء فى إحداها

بكر النعى فقال : أردى خيرها ... ان كان يصدق فالرضى هو الردى
عادت أراكة هاشم من بعده ... خوراً لفأس الحاطب المتوقد
فجعت بمعجز آية مشهودة ... ولرب آيات لها لم تشهد
كانت اذا هى فى الامامة نوزعت ... ثم ادعت بك حقها لم تجحد
تبعتك عاقدة عليك امورها ... وعرى تميمك بعد لما تعقد
ورآك طفلا شيبها وكهولها ... فتحز حوالك عن مكان السيد
انفقت عمرك ضائعا فى حفظها ... وعققت عيشك فى صلاح المفسد
كالنار للسارى الهداية والقرى ... من ضوئها ودخانها للموقد

مؤلفاته

ماكان الشريف الرضى شاعرا فحسب ولكنه كان كاتبا قويا وباحثا ومؤرخا كما كان متضلعا فى علوم الدين والفقة وله من التصانيف

(١) كتاب المتشابة فى القرآن

(٢) كتاب مجازات الآثار النبويه

(٣) كتاب نهج البلاغة

(٤) كتاب تلخيص البيان عن مجازات القرآن

(٥) كتاب الخصائص

(٦) كتاب سيرة والده الطاهر

(٧) كتاب منتخب شعر ابن الحجاج سماه الحسن من شعراء الحسين

(٨) كتاب أخبار قضاة بغداد

(٩) كتاب رسائله

(١٠) ديوان شعر وهو مشهور ومعروف

(١١) تفسير القرآن

ولو أننا وقفنا على هذه الكتب لازددنا معرفة بالرجل وأسرته وبيئته وبطريقته فى الكتابه ولانتفعنا بها وبخاصة بما كتبه عن والده

كتابة الشريف

كان الشريف الرضى من كبار كتاب عصره . ويلاحظ القارئ للمقدمة التى خطها قلمه لكتاب نهج البلاغة أن الرجل لم يكن مشغوفا بزخرف القول ولا ميالا إلى فنون البديع والسجع التى شاعت فى زمنه شيوعا عظيما خلا السجع المتين الذى يوحيه الخاطر وتجود به القريحة عفوا دون تكلف أو تصنع . ومثال ذلك قوله فى المقدمة المذكورة

«ومن عجائبه عليه السلام التى انفرد بها وأمن المشاركة فيها أن كلامه الوارد فى الزهد والمواعظ والتذكير والزواجر إذا تأمله المتأمل وفكر فيه المتفكر وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ونفذ أمره وأحاط بالرقاب ملكه لم يعترض الشك فى أنه من كلام من لاحظ له فى غير الزهادة ولاشغل له بغير العبادة . »

شعره

(١) ديوانه

ترك الشريف الرضى نحو ستة عشر ألف بيت من الشعر جمعت فى ديوان ضخم ورتبت على حروف الهجاء . ومما يؤسف له أن ديوان صاحبنا لم يلق أى عناية من الناشرين ولاندرى السر فى ذلك . لقد اهتمت دار الكتب المصرية بديوان تلميذه مهيار الديلمى فأظهرته فى ثوب قشيب فياحبذا لوعنيت تلك الدار بطبع ديوان الشريف . فأن اخراج هذا الكنز العظيم إلى حيز الوجود يعد من غير شك من الأعمال الجليلة فى عالم الأدب .

٢ ـ شاعريته

امتاز الشريف الرضى بشاعرية قويه جدا تتدفق تدفق المحيط . فأذا انطلق لسانه بالرثاء أتى بالقصائد الطويلة التى تزيد على المائة بيت ومعظمها مما يسيل العبرات . وإذا مدح أطال وأتى بما يرقص ممدوحه . وإذا افتخر أبدع وأجاد وأتى فى أبيات معدودة بما لايستطيع أن يأتى به شاعر آخر فى قصيدة طويلة .

٣ـ بديهته

فى الديوان اشارة إلى بعض القصائد التى قالها الشريف مبتدها وهى تدل على استعداد عظيم للشعر . ومن أمثلة ذلك قوله من قصيدة يصف فيها جارية

أحبك يالونى الشباب لأننى ... رأيتكما فى القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان رقعة ... بجلدته أو شق فى وجهه فما
لبغض عندى الصبح ما كان مشرقا ... وحبب عندى الليل ما كان مظلما
سكنت سواد القلب اذ كنت شبهه ... فلم أدر من عز من القلب منكما
وما كان سهم الطرف لولا سواده ... ليبلغ حبات القلوب اذا رمى

٤ـ تقليده لمن سبقه من الشعراء

بالرغم من أن الشريف الرضى كان مستعدا للشعر إلا أننا نرى أن شعره ليس من نوع واحد . ففيه الشعر الوجدانى المؤثر كالرثاء والفخر ومديحه لوالده . وفيه الشعر الصناعى الذى قاله على سبيل المجاملة كمديحه للخلفاء أو تقليدا للشعراء كالنسيب فأنه سلك فيه مسلك الشعراء الحجازيين .

• • •

ولعل من المهم أن نذكر أن صاحبنا تأثر بشعراء العربية الذين عاشوا قبله . فانه — كما أسلفنا — قد درس آثارهم دراسة دقيقة فانتفع بهم فى أغراضه وألفاظه ومعانيه .

٥ — تقسيم شعره تاريخيا

ابتدأ الشريف الرضى يقول الشعر وهو فى العاشرة من سنى حياته وفى الديوان ارشاة إلى أول شعر قاله ومنه

المجد يعلم أن المجد من أربى ولو تمديت فى غى وفى لعب
انى لمن معشر ان جمعوا لعلا تفرقوا عن نبى أو وصى نبي
اذا هممت ففتش عن شباهمى تجده فى مهجات الانجم الشهب

فان صح أن هذه الأبيات هى أول مانظمه صاحبنا أدركنا أن الرجل كان على استعداد عظيم لقول الشعر لأن هذا النظم المتين النسج يدل على قوة الطبع بالرغم من وضوح الصنعة فيه وظهور آثار التكلف عليه . ونستنتج من مطالعتنا لهذه الأبيات ولغيرها مما قاله الشريف فى صباه أنه عنى بالألفاظ دون المعانى .

• • •

وظل شعر الرجل يقوى شيئا فشيئا حتى وصل الى درجة محمودة فى أيام شبابه وفى هذا الطور قلت عناية صاحبنا بالألفاظ وزخرفها وعظم اهتمامه بالمعانى وروعتها . وقد رأى القارئ مثالا لذلك فى رثاء أمه .

وما أشرف صاحبنا على سن الكهولة حتى أصبح من فحول الشعراء . لقد أخصبت شاعرية الرجل وأتت بنظم سيبقى خالدا فى عالم الأدب. وستنظر اليه الأجيال الآتية بشىء كبير من الاعجاب والتقدير كما نظرت اليه الأجيال الماضية . ويرى القارىء مثال ذلك فى رثائه لأبيه وللصابئ ولابن عباد .

٦ - فنون شعره

قسم العلماء الشعر الى ثلاثة أقسام وهى (ا) وجدانى (ب)وصفى (ج) فلسفى .

وشعر صاحبنا فيه وجدانى وفيه وصفى ويكاد يخلو خلوا تاما من الشعر الفلسفى مع أن الفلسفة قد نضجت فى عصره وانتشرت بين الناس وظهرت بوضوح وجلاء فى شعر المتنبي والمعرى . أجل ! قد يجد القارىء فى بعض قصائده بيتا أو بيتين فى ذم الدنيا وشكوى الزمان ولكن هذا قليل جدا بالنسبة لشعره الكثير

أما الشعر الوصفى فقد ورد بكثرة فى ديوان صاحبنا . ولكنه لم يعن بوصف المناظر الطبيعية المختلفة بل غلب عليه الوصف الحماسى فنراه اذا مدح أو رثى خرج من الغرض الحقيقى إلى وصف المعارك الحربية وآلات القتال

والشعر الوجدانى يشمل المديح والرثاء والفخر . ولهذا النوع حظ عظيم من ديوان الرجل .

٧ ــ اغراضه

تناول الشريف الرضى فى شعره المديح والرثاء والفخر والوصف وشكوى الزمان والنسيب والشيب . ولم يقل شيئا فى الهجاء . ويحسن بنا أن نتكلم عن كل غرض من الاغراض السالفة على حدة .

(ا) المدح

للشريف الرضى طريقتان فى المدح . ففى الطريقة الأولى كان يقصد إلى ممدوحه مباشرة ويوجه إليه الخطاب رأسا دون أن يمهد لذلك بشىء من النسيب على عادة الشعراء . ومثال ذلك قصيدته التى مدح بها الخليفة الطائع ومطلعها

لله ثم لك المحل الأرفع وإليك ينتسب العلاء الأقدم

وفى الطريقة الثانية كان يجارى من سبقه من الشعراء فى الابتداء بذكر الاطلال والحنين اليها ومثال ذلك قصيدته التى مدح بها أباه ومطلعها

يادار ماطربت إليك النوق إلا وربعك شائق ومشوق

أو فى الابتداء بالنسيب ومثال ذلك قوله يمدح الخليفة القادر بالله من قصيدة مطلعها : لمن الحدوج تهزهن الأينق والركب يطفو فى السراب ويغرق

وكان أحيانا يبدأ القصيدة بذكر محاسن المشيب ومثال ذلك قصيدته التى يمدح بها أباه ومطلعها

مسيرى إلى ليل الشباب ضلال وشيبى ضياء فى الورى وجمال

* * *

ومن السهل علينا إذا نظرنا إلى قصائد الرجل التى نظمها فى المدح أن نقسمها إلى قسمين . فنضع فى القسم الأول قصائده التى مدح بها الخلفاء وهذه متكلفة لاأثر للصدق فيها ونضع فى القسم الثانى قصائده التى قالها فى مدح والده وهذه صادرة عن عاطفة صادقة

(ب) الرثاء

اشتهر الشريف الرضى بقدرة فائقة فى الرثاء أثارت فى نفوس الأدباء كثيرامن الدهشة والأعجاب . وقد أشار الثعالبى إلى ذلك بقوله (ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفا فى المراثى منه) . وكثيرا ماكان يبدأ قصائده فى هذا الباب باستفهام يقصد به إظهار الأسى والحزن ومثال ذلك رثاؤه للصابىء ولا بن عباد . وقصيدته التى مطلعها أعلمت من حملوا على الأعواد ؟ أرأيت كيف خبا ضياء النادى ؟ ؟ أشهر من نار على علم . لقد تناقلها الأدباء قديما وحديثا . وقلما تمر ذكرى الشريف الرضى خالية من الاشارة إلى هذه القصيده البديعة

(ح) الفخر

من أخص مميزات صاحبنا كثرة فخره بآبائه وأجداده . ومما تنبغى ملاحظته أن بيئة الرجل وماضى أسرته المجيد وتاريخ أجداده العلويين . نقول إن كل هذه الأشياء قد أمدته بقدرة عظيمة على الفخر وأوحت إليه فى هذا الباب بأبيات لم يسبقه اليها شاعر من قبل

(د) الوصف

يلاحظ المطالع لشعر الشريف كثرة ورود الوصف الحماسى حتى فى قصائد الرثاء فأنه يورد بضعة أبيات فى وصف المعارك الحربية وآلات القتال . ومن الواضح أن صاحبنا لم يتقلد سيفا ولم يشاهد موقعة حربية واحدة . فأذا كل ماقاله فى هذا الباب إنهو إلا تقليد لغيره من الشعراء . ولم يتعرض الرجل لوصف المناظر الطبيعية . وله بضعة قصائد فى وصف الأسد

(و) النسيب

وللشريف الرضى شعر غير قليل فى النسيب سلك فيه مسلك الشعراء الحجازيين فى صدر الاسلام ومن أجمل ماقاله فى هذا الباب قصيدته التى مطلعها

ياظبية البان ترعى فى خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمع الباكى

ومن المعلوم ان صاحبنا لم يكن عاشقا ولا مغرما . ومن ثم كان شعره الذى نظمه فى النسيب متكلفا قاله على سبيل التقليد ليس إلا .

(هـ) الشيب

ذكرنا أن الشريف الرضى ما كاد يبلغ العام الثالث والعشرين من عمره حتى اشتعل رأسه شيبا وقد انطلق لسانه بادىء ذى بدء بالشكوى منه وبالتحسر على أيام الشباب . إلا أن صاحبنا أخذ فيما بعد يمدح الشيب ويفضل أيامه على أيام الشباب. قال

مسيرى إلى ليل الشباب ضلال وشيبى ضياء فى الورى وجمال

وقد أكثر من وصف المشيب حتى أنه كان يبدأ قصائد المديح به وبذكر حسناته وللشريف الرضى فى هذا الباب طريقة لم يسبق اليها . وهذه الطريقة هى مزجه الغزل بوصف المشيب وقد اتبعها الشعراء الذين أتوا من بعده .

(ن) شكوى الزمان

تحالفت على الشريف الرضى فى حياته عوامل كثيرة أطلقت لسانه

بالشكوى منها كيد حساده له وقد سبقت الاشارة إلى ذلك . ومنها فشل الرجل فيما كان يسعى إليه من آمال . فكان دائم الشكوى فى شعره مما يلاقيه من مرارة الخيبة وكيد الاعداء . ونظمه فى هذا الباب منبعث من أعماق قلبه وسويداء فؤاده .

٨ — الفاظه

ألفاظ الشريف الرضى كلها مصقولة ناصعة جارية على الموازين اللغوية والصرفية . ولن يجد الباحث فى شعره على كثرته لفظا سوقيا مبتذلا ولا كلمة غريبة ينفر منها الذوق وتستك لسماعها الآذان ولن نعثر على لفظ يحتاج إلى عناء فى الشرح والتفسير . ومن الواضح أن صاحبنا تأثر بمن سبقه من الشعراء وبخاصة الذين عاشوا فى صدر الاسلام فأتى فى شعره بكثير من ألفاظهم التى استعملوها

٩ — أسلوبه

أمتاز الشريف الرضى بأسلوب عربى بدوى ويلاحظ المطالع لشعره أن صاحبنا كان يؤثر الاطناب على الأيجاز وإذا مدح أو افتخر اقترب أسلوبه من أسلوب الفرزدق . ومما يذكر له بالحمد سلامة شعره من

البديع الذى كان فاشيا فى عصره . فقلما يجد القارىء فى كلامه طباقا أو جناسا أو تورية . أما الاستعارات فكثيرة فى شعره وبخاصة الوصفى

١٠ — معانيه

معانى الشريف وأخيلته عربية بدوية فى معظم شعره . وأكثر معانى الرجل فى الفخر من ابتكاره أوحتها أليه البيئة ودراسته لآبائه وأجداده

وفى باب الشيب مزج الغزل بشكوى الشيب وأتى فى ذلك بكثير من المعانى الجيدة التى احتذاها الشعراء فيما بعد . ولكننا نرى الرجل فى غير الفخر والشيب مقلدا للشعراء الذين درس آثارهم

١١ — نظرة عامة فى شعره

أذا تصفح القارىء ديوان صاحبنا خرج منه دون أن يجد بيتا واحدا فى الهجاء اللاذع أو الغزل الفاحش الذى انتشر بكثرة وذاع على ألسنة الشعراء الذين ظهروا فى عصره . وهذا شىء يحمد عليه

١٢ — الشعراء الذين تأثروا بالشريف

من الشعراء الذين تأثروا بالشريف الرضى مهيار الديلمى وقد

سبقت الأشارة أليه . ومحمود سامى باشا البارودى فقد نحا نحو صاحبنا فى كثير من قصائده . ومثال ذلك أن الشريف الرضى قال قصيدة مطلعها

لغير العلا منى القلا والتجنب ولولا العلا ماكنت فى الحب أرغب

فقال البارودى قصيدة نسج فيها على منوال الشريف ومطلعها

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويلعب

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك مسمعيه اليراع المثقب

وقصيدة صاحبنا المشهورة التى قالها فى رثاء ابى اسحاق الصابى ومطلعها

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادى ؟ ؟

احتذاها البارودى فى قصيدته التى رثى بها زوجته ومطلعها

أيد المنون قدحت أى زناد وأطرت أية شعلة بفؤادى

أوهنت عزمى وهو حملة فيلق وحطمت عودى وهو رمح طراد

١٣ -- سرقة شعر ه

يظهر أن فريقا من معاصرى الشريف كان يسرق شيئا من شعره وينسبه إليه . وبلغ ذلك صاحبنا فقال قصيدة مطلعها

أفى كل يوم لى عشار تسوقها رماح بنى الغبراء سوق الظعائن

الترجمة عند القدماء

هذه الطريقة التى نتبعها فى الترجمة عن الشعراء لم تكن معروفة عند القدماء . بل كان من عاداتهم أن يكتبوا عن الشاعر فيما لا يزيد عن عشرة اسطر . يذكرون اسمه وكنيته ونسبه ومتى ولد ومتى توفى . ويوردون ما امتاز به من متانة الأسلوب ورشاقة التركيب وسرعة الخاطر وغيرها من الصفات التى يلصقونها بكل شاعر وكاتب. وهانحن نضع بين يدى القارىء ترجمة الشريف كما أوردها الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر . قال (. . . وابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز العشر سنين بقليل . وهو اليوم أبدع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق . يتحلى مع محتده الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر . ثم هو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعرائهم المفلقين كالحجانى وابن طباطبا وابن الناصر وغيرهم . ولو قلت انه اشعر قريش لم أبعد عن الصدق وسيشهد بما أجرى من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القدح الممتنع عن القدح الذى يجمع الى السلاسة متانة والى السهولة رصانة ويشتمل على معان يقرب جناها ويبعد مداها)

ثم أتى ببعض قصائد الرجل . هذه هى ترجمة الشريف لرضى عند الثعالبى . ولم يكن حظ صاحبنا عند أبن خلكان بأحسن من حظه عند صاحب يتيمة الدهر . أجل ! لقد نقل ماكتبه الثعالبى بنصه وزاد عليه شيئا قليلا .

« بين الشريف الرضى والمتنبى »

بين الشريف الرضى والمتنبي أوجه شبه كثيرة نذكر منها :—

(١) أن كلا منهما كان يتعشق الملك ويمنى نفسه بأبهة السلطان ويسعى جهده لتحقيق أمنيته

(٢) أن كلا منهما فشل فيما كان يسعى إليه من طلب الملك

(٣) » » » كان كثير الفخر بحسبه ونسبه ونفسه وشعره

(٤) » » » » يتمتع بشاعرية قوية

(٥) » » » مات وهو فى ريعان الشباب

(٦) » » كان ارستقراطيا

(٧) » » » ملازما لمجالس الملوك والسلاطين فالمتنبى كان كثير الغشيان لمجالس الحمدانيين وكذلك الشريف الرضى كان كثير الغشيان لمجالس الخلفاء العباسيين والملوك البويهيين

مختارات من نظم الشريف

١ ــ المديح

قال من قصيدة يمدح بها الخليفة الطائع وذلك في سنه ٣٨٠ هـ

لله ثم لك المحل الأعظم ... واليك ينتسب العلاء الأقدم
ولك التراث من النبى محمد ... والبيت والحجر العظيم وزمزم
تمضى الملوك وأنت طود ثابت ... ينجاب عنك متوج ومعمم
ماذاك إلا أن غربك منهم ... أمضى وان علو مجدك أعظم
إن الخلافة مذ نهضت بعبئها ... هدأ الضمير بها ونام النوم
لله أى مقام دين قمته ... والأمر من دون الفضية مبهم
فكأنما كنت النبى مناجزا ... بالقول أو بلسانه تتكلم
لا تهتدى نوب الزمان لدولة ... الله فيها والنبى وأنتم

• • •

وقال يمدح الخليفة القادر بالله حينما جلس على عرش الخلافة سنة ٣٨٢

شرف الخلافة يابنى العباس ... اليوم جدده ابو العباس
وافى لحفظ فروعها وكنيه ... كان المثير مواضع الاغراس
هذا الذى رفعت يداه بناءها ال ... عالى وذاك موطد الآساس
ذا الطول بقاه الزمان ذخيرة ... من ذلك الجبل العظيم الراسى

واحتل غاربه ولى خلافة ما كان يلبسها على اللباس
سبق الرجال الى ذراها ناجياً من ناب كل مجاذب نهاس

...

وقال يمدحه من قصيدة أخرى سنة ٣٨٢ هـ

لله يوم أطلعتك به العلا علماً يزاول بالعيون ويرشق
لما سمت بك غرة مرموقة كالشمس تبهر بالضياء وترمق
وبرزت فى برد النبي وللهدى نور على أسرار وجهك مشرق
وكأن دارك جنة حصباؤها الـ ـجادى أو أنماطها الاستبرق
فى موقف تغضى العيون جلالة فيه ويعثر بالكلام المنطق
والناس إما شاخص متعجب مما يرى أو ناظر متشوق
مالوا اليك محبة فتجمعوا ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
وطعنت فى غرر الكلام بفيصل لا يستقل به السنان الازرق
وغرست فى حب القلوب مودة تزكو على مر الزمان وتورق
عطفاً أمير المؤمنين فاننا فى دوحة العلياء لانتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا فى المعالى مغرق
إلا الخلافة ميزتك فانني أنا عاطل منها وأنت مطوق

٢ - الرثاء

قال يرثى أبا اسحاق الصابىء المتوفى سنة ٣٨٤ هـ

أعلمت من حملوا على الاعواد ؟؟ أرأيت كيف خبا ضياء النادى
جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى من وقعه متتابع الازباد
ما كنت أعلم قبل وضعك فى الثرى أن الثرى يعلو على الاطواد
بعدا ليومك فى الزمان فانه أقذى العيون وفت فى الاعضاد
لا ينفد الدمع الذى يبكى به إن القلوب له من الامداد
أعزز على بان أراك وقد خلت من جانبيك مجالس العواد
قد كنت أهوى أن أشاطرك الردى لكن أراد الله غير مرادى
ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا أنى ومثلك معوز الميلاد
أما الدموع عليك غير بخيلة والقلب بالسلوان غير جواد
سودت مابين الفضاء وناظرى وعسلت من عينى كل سواد
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة لتقوم بعدك لى مقام الزاد
يا لبت أنى ما اقتنيتك صاحبا كم قنية جلبت أسى لفؤاد
لا تطلبى يا نفس خلا بعده فلمثله أعيا على المقتاد
فقدت ملاءمة الشكول لفقده وبقيت بين تباين الاضداد
مامطعم الدنيا بحلو بعده أبدا ولا ماء الحيا ببراد

الفضل ناسب بيننا اذ لم يكن ... شرفٍ مناسبـــه ولا ميـلادى
إن لا تكن من أسرتى وعشيرتى ... فلأنت أعلقهـم يداً بودادى
ضاقت على الارض بعـدك كلها ... وتركت أضيقهـا على بلادى
لك فى الحشـا قبر وإن لم تأوه ... ومن الدموع روائح وغوادى
ما مات من جعل الزمان لسانه ... يتلو مناقب عود وبوادى
فاذهب كـما ذهب الربيع وأثره ... باق لـكل مهابط ونجـاد

وقال من قصيدة يرثى بها الصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ

أكذا المنون يقطر الابطالا ؟؟ ... أكذا الزمان يضعضع الاجبالا؟
أكذا نصاب الاسدوهى مدلة؟ ... تحمى الشبول وتمنع الاغيالا
اكذا تقام على الفرائس بعد ما ... ملأت هماهمها الورى أوجالا
أكذا تحط الزاهرات عن العلا ... من بعـد ما شاق العيون منالا
أكذا تغاض الزاخرات وقد طغت ... لججـا وأوردت الظماء زلالا
يا طالب المعروف حلق نجمه ... حط الحمـول وعطـل الاجمـالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذى ... كان الانام على نداه عيـالا
من كان يقرى الجهل علماً ثاقبا ... والنقص فضـلا والرجاء نوالا
خـبر تمخض بالأجـنة ذكره ... قبـل اليقـين وأسلف البلبالا
حتى إذا جلى الظنون يقيـــنه ... صدع القلوب وأسقط الاحمـالا
الشك أبرد للحشا فى مثـله ... ياليت شكى فيـه دام وطـالا
جبل تسنمت البلاد هضابه ... حتى اذا ملأ الاقالم زالا

ياطود كيف وأنت عادى الذرى ... ألقى بجانبك الردى زلزالا
ما كنت أول كوكب ترك الدنا ... وسما الى نظرائه فتعالا
أنفا من الدنيا نبت حبالها ... ونزعت عنك قميصها الاسمالا
لا رزء أعظم من مصابك إنه ... وصل الدموع وقطع الاوصالا
يا آمر الاقدار كيف أطعتها ... أو ما وقاك جلالك الآجالا
هلا أقالتك الليالى عثرة ... يامن اذا عثر الزمان أقالا
يا طالبا من ذا الزمان شبيهه ... هيهات كلفت الزمان محالا
ان الزمان أضن بعد وفاته ... من أن يعيد لمثله أشكالا
كسف البلى ذاك الهلال المجتلى ... وأجر داك المقول الجوالا
ورأيت كل مطية قد بدلت ... من بعد يومك بالزمام عقالا
طرح الرجال لك العمائم حسرة ... لما رأوك تسير أو اجلالا
قالوا وقد فجئوا بنعشك سائرا ... من ميل الجبل العظيم فمالا
وتبادروا عظ الجيوب وعاجلوا ... عظ الانامل يمنة وشمالا
ما شققوا إلا كساك وآلموا ... إلا أنامل نلن منك سجالا
اعزز على بان يبدل زائر ... بعد التهلل عندك استهلالا
او ان يناديك الصريخ لكربة ... حشدت عليه فلا تخير مقالا
قد كنت آمل ان اراك فاجتنى ... فضلا اذا غيرى جنى أفضالا
فطواك دهرك طى غير صيانة ... وأعاد أعلام العلا أغفالا

٣ ـ الفخر

ما هيجتنى العدا إلا وكنت لها ... سماء كل جواد أرضه القلل
عشى الحسام بكفى فى رؤوسهم ... ويخرق الرمح ما تعيا به الفتل
قومى هم الناس لاجيل سواسية ... الجود عندهم عار إذا سئلوا
أبى الوصى وأمى خير والدة ... بنت الرسول الذى ما بعده رسل
أين قوم كقومى إن سألتهم ... سوابق الخيل فى يوم الوغى نزلوا
كالصخر إن حلموا والنار إن غضبوا ... والأسد إن ركبوا والوبل إن بذلوا
الطاعنين من الجبار مقلته ... والضاربين وذيل النقع منسدل
والراكبين المطايا والجياد معا ... لا الشكل تحبسها يوما ولا العقل
تغضى عيون الأعادى عن رماحهم ... وللأسنة فيهم أعين نجل

فهرست

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الكتاب
	الفصل الاول
٨	الحالة السياسية
٢٠	الحاله الاجتماعية
٢٩	الدين
٣	الحاله الفكرية
٤٥	الشعر
٥١	الشعراء
٥٥	الكتابة
٥٩	بلغاء الكتاب
	الفصل الثانى
٦٥	أسرة الشريف
٧٠	نسبه
٧٠	فى العصر الجاهلى
٧٦	قريش
٧٩	على ابن طالب

الصفحة	الموضوع
٨٧	مشكلة الخلافة
٩٤	مولد الشريف الرضى
٩٥	طفولته
٩٦	ثقافته وتهذيبه
٩٨	بعض أساتذته
١٠١	تصرفه وعمله
١٠٣	مذهبه
١٠٦	حساده
١٠٨	نفسيته
١١٠	آماله وآمانيه
١١٣	لماذا فشل
١١٧	يأسه وحزنه
١٢١	صفاته وأخلاقه
١٢٥	اسراع الشيب إليه
١٢٦	وفاته
١٢٧	مراثى الشعراء له

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
نحن لا نصور الكتب وإنما نعيد إتاحتها وتجميعها على شكل أرشيف

الفصل الثالث

١٢٨ مؤلفاته
١٢٩ كتابة الشريف
١٣٠ شعره
١٤٠ الذين تأثروا بالشريف
١٤٢ الترجمة عند القدماء
١٤٣ بين الشريف والمتنبي
١٤٤ مختارات من نظم الشريف

انتهى